جنكيز ايتماتوف

عين الجمل

رواية

مكتبة
الفكر الجديد
30-05-2017

ترجمة
د. ثائر زين الدين
د. فريد حاتم الشحف

للثقافة والنشر والإعلام

جنكيز ايتماتوف: عين الجمل

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

جنكيز ايتماتوف

عين الجمل

رواية

ترجمة:

د. ثائر زين الدين

د. فريد حاتم الشحف

للثقافة والنشر والإعلام

مكتبة
الفكر الجديد

Book: ayn al jamal

الكتاب: عين الجمل

Chingiz Aitmatov

ترجمة: د. ثائر زين الدين ـ د. فريد حاتم الشحف

Translated By: Taher zainedin - Fareed Hatem Alshahaf

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

All rights reserved

حقوق الطبع محفوظة ©

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-221-9

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

مكتبة الفكر الجديد

مقدمة

يمكننا القول إن المصير الإبداعي **لجنكيز ايتماتوف** المولود عام ١٩٢٨ في قرية شكر القرغيزية كان سعيداً، بغض النظر عن أن والده البولشيفيكي القرغيزي، سقط ضحية الاضطهاد(١٩٣٧)، واحتضنته عمته كاراغيز آبا[١]؛ فقد بدأ الإبن بنشر قصصه القصيرة الأولى منذ عهد ستالين. كان ايتماتوف حينها يدرس في المعهد الزراعي، ثم عمل مهندساً زراعياً في معهد الدراسات العلمية للثروة الحيوانية، لكن موهبته الأدبية بدت جليّة منذ سنوات الدراسة المبكرة وكان واضحاً أن الكتابة ستكون مهنته الرئيسة.

التحق ايتماتوف بدورة عليا في الأدب في مدينة موسكو عام١٩٥٦، أنهاها بعد عامين. حينها رأت روايته «جميلة» النور(١٩٥٨)، وجلبت له شهرة عالمية؛ فأعيدت طباعتها في

---

(١) يكتب ايتماتوف عن عمته هذه في «صفحات من حياتي»: «في تلك المرحلة القاسية آوتنا عمتي كاراغيز آبا. ومن طيب طالعي أن عمة كهذه كانت عندي. فقد حلت محل جدتي. وهي مثلها خياطة ممتازة وراوية تحفظ الأغاني القديمة، لقد استطاعت أن تثبت لنا أن لا شيء يهلك الإنسان ـ مهما كانت المصائب التي تنهال عليه ـ إذا ما كان في أهله وقومه». (المترجمان)

مكتبة الفكر الجديد

ألمانيا وحدها عشر مرات، وترجمت إلى حوالي مئة لغة من لغات العالم؛ منها ترجمة الأديب الفرنسي لويس أراغون الذي وصفها بأجمل رواية حب معاصرة، وأدرجت «عين الجمل ـ ١٩٥٦» في المناهج التدريسيّة للطلاب الألمان.

لم تستطع قوانين الواقعية الاشتراكية أن تقوقع كتابات ايتماتوف، وأنقذه من براثن النقد الأيديولوجي عمق إحساسه القومي وإبداعه الإنساني المضيء.

كان مؤلف «قصص الجبال والسهوب»[١] المشهورة سعيداً بحب القراء له، منذ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وفي الوقت نفسه نال في هذه الفترة اعترافاً رسمياً؛ فقد أصبح أصغر الحائزين على وسام لينين(١٩٦٣)، وحصل ثلاث مرات على أوسمة الاتحاد السوفيتي، وجائزة الدولة. كما نال لقب بطل العمل الاشتراكي، وكان عضواً للجنة المركزية للحزب، وعضو المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتي... ، ومع ذلك، تمكن الكاتب من إبداع تلك الروايات الرائعة، مثل «السفينة البيضاء ـ ١٩٧٠»، «ويطول اليوم أكثر من قرن ـ ١٩٨١» و«الكلب الأبلق يعدو على حافة البحر ـ ١٩٧٧».

إن التعبير عن الأفكار الفلسفية ضمن البنية الجمالية للأدب، هو

---

(١) أعمال هذه المجموعة شملت «حورتي في منديلٍ أحمر»، و«المعلم الأول» ـ ١٩٦٢، و«وداعا يا غولساري» ـ ١٩٦٦، وقصص أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

واحدٌ من التقاليد القديمة لتطور الإنسان الروحي. حيث تظهر تجربة تطور الأدب كلّها، بأن المسائل المتعلقة بالإبداع الأدبي، لا يمكن فهمها واستيعاب مغزاها، وحلّها للنهاية، ضمن نطاق الأدب فحسب، ولم تكن هواجسُ البحث الفلسفي غريبة على الأدب أبداً، لذلك فقد دخلت الفلسفة بشكل لافت في الأعمال الأدبية (الروايات، والمسرحيات، والشعر، والملاحم...)، مساعدةً في البحث والتأمل وفهم العالم الإنساني، وعالم الوجود بصورة عامة.

من الضروري طبعاً للباحث في مجال الأدب، أن يستخلص بمهارة الجوانب الفلسفية والمنهجية من النسيج الأدبي، ذلك أن الأفكار الفلسفية في الأعمال الأدبية لا تطفو على السطح، ولا تطرح مباشرة وبشكل واضح، بل تقع في الطبقات العميقة، وفي الأساس. صحيح أن الأدب يعكس الحياة الواقعية، لكنه يعكسها على طريقته الخاصّة، وبإبداع، توافقاً مع القوانين الأدبية: حيث تنشأ باستخدام الخيالِ بنىً معينة، مُركزةً اهتمام القارئ على أشياء بعينها.

إبداع الأديب القرغيزي المشهور جنكيز ايتماتوف، مثالٌ ساطع على التعبير الفلسفي من خلال البنية الأدبية الجمالية. فمن غير الممكن دراسة إبداعه بصورة عميقة، وتجاهل الأفكار الفلسفية، المشفّرة في البناء الفنّي لرواياته وقصصه القصيرة.

لا يطرح ايتماتوف الفنّان/ الفيلسوف، وجهات نظره الفلسفية

مكتبة الفكر الجديد

بشكلٍ منطقيٍ جافٍ. بل تنسرب العناصر الفلسفية في إبداعاته كلّها، وتتخلل المسائلُ الفكريةُ ـ الفلسفية أعماله بصورة سلسة.

إنّ الموضوع الفلسفي الرئيس لايتماتوف هو الإنسان، ونفسيته، وطبيعته، وسلوكه في حالات مختلفة. حيث يرى الكاتب، أن «الشيء الرائع في الإنسان بالتحديد: كم هو إنسان»[1]. وما يوحّد أعماله هو محاولة البحث عن الإنسانية في الإنسان.

تجد في كل عمل من أعماله مسألة رئيسة تشغل باله: فقد نلمس اشتغالاً على **نفسية الإنسان المُحتَقر** في أعماله: «السفينة البيضاء» ـ (العم مأمون)، «غيمة جنكيز خان البيضاء» (أبو طالب كوتيبايف). **عُقد الإنسان النفسيّة** ـ في «النطع»، و«ويطول النهار أكثر من قرن». **مسألة الجريمة** ـ في «وجهاً لوجه»، و«الصعود إلى فودزيام»، و«السفينة البيضاء» .**حالة الخوف** ـ في «وجهاً لوجه»، و«غيمة جنكيز خان البيضاء».

(إبرديني). لكن بالتأكيد، لا تقتصر الأعمال المذكورة أعلاه على ذلك فقط.

يولي ايتماتوف طبيعة الإنسان وجوهره أهميةً كبيرةً. يأخذ الشخصيات كما هي في الحياة. ينظر ليس فيما حولها فحسب، بل يحاول أن ينفذَ إلى داخلها. لقد فعل ذلك منذ أعماله المبكرة.

---

(١) ج. ايتماتوف (عمل مشترك) ـ مع الأرض والماء، فرونزه، ١٩٧٨ ـ ص٣١٩ (باللغة الروسية).

مكتبة الفكر الجديد

كتب ذات يوم بهذا الشأن: «غالباً ما يسألونني من أين استقيت صورة جميلة ودانيار. يصعب الجواب بالتحديد عن هذا السؤال. لقد أخذت عن الناس الأحياء الذين عشت معهم وعملت في الكولخوز، وهم بالنسبة لي موجودون في الحياة نفسها، وأنا ألتقي بهم يومياً. وعلى مرأى منا يترعرع أناس جدد مثل جميلة ودانيار.. إنهم أناس رائعون بودي أن أكرس لهم أفضل الصفحات، وأكثرها إشراقاً»[1]. ولقد أظهر ايتماتوف في روايته «جميلة» التي تحدث عن شخصياتها ومن خلال نموذج الفتى «سيّد» فراسة وفطنة البطل. دخل الكاتب عميقاً في نفسية الإنسان، واصفاً المعاناة الداخلية للأبطال، وحالة الفقدان المؤلمة التي عاشها الفتى سيّد مع مغادرة جميلة ودانيار القرية. لقد حقق نجاحات كبيرة في وصف الحالة الداخلية للإنسان، ومعاناته، ومبررات سلوكه. وسنراه يحاولُ دوماً الوصول إلى كل الزوايا في العالم الداخلي لهذا الكائن العاقل، ويتجلّى ذلك بوضوح، عندما تكون الشخصيّة في حالة مفصليّة أو حدّيّة، فيحصل في نفسية البطل تناقض بين الخير والشر، بين ما هو أخلاقي، وما هو غير أخلاقي، بين المصلحة الشخصية ونكران الذات.

تحتل مسألة الأخلاق في أعمال ايتماتوف أحد الأماكن المركزية. يعيش الخير والشر داخل الفئة الاجتماعية الواحدة، وداخل الإنسان

---

(١) ج. ايتماتوف، الرياح تطهر الأرض، ترجمة: خيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨، ص٦٨.

مكتبة الفكر الجديد

الواحد كما سنرى في هذه الرواية التي بين أيدينا «عين الجمل». «من الصعب أن تُبرز الصراع بين الخير والشر داخل هذه الحياة... ولنقل إن الإنسان يمكن أن يكون طبيعياً تماماً، ومع ذلك تعششُ في أعماق روحه القسوة. كيف سيتصرف هذا الإنسان أوقات الأزمات؟ ما الذي سينتصر في داخله ـ الخير أم الشر؟ أي إنسان هو ـ شرير، أم خيّر؟ إنّه خيّر إلى لحظة معيّنة؟ بالنسبة لي فإنّ القسوة المحتملة، الخفية، تثير اهتمامي أكثر من الشجار والقتل... أحاول أن أظهر في الإنسان احتياطي تلك القوى الإنسانية، التي تصارع الشر»[1].

وهو وخلال ذلك كلّه كانت كتاباته دعوةً عميقة للناس في العالم أن يطّلعوا على روح الشعب القرغيزي وعاداته وتقاليده وقواه الوثّابة البناءة التي انطلقت ـ في حقبة عاشها الكاتب ـ تمارس التحويل العظيم للأرض وتنتقلُ من مرحلة الرعي والترحال إلى التحضّر والتمدّن، كان يدعو الناس على حد تعبيره «ليسمعوا أغاني تلك الأصقاع الجبليّة والسهوب، أغاني الحرية والحب والفرحة والانتصارات في بناء الحياة الجديدة»[2].

المترجمان

---

(١) ج. ايتماتوف (مشترك) ـ مع الأرض والماء... فرونزه، ١٩٧٨ ـ ص٣١٩.

(٢) ج. ايتماتوف، الرياح تطهر الأرض، ترجمة: خيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨، ص٦٧.

مكتبة الفكر الجديد

١

ما إن تمكّنت من غَرفِ نصف دلو من ماء النبع، حتى اجتاحت السهبَ صرخةٌ مؤلمةٌ:

ـ إيييي! أيّها الأكاديمي، سأشوّه وجهك!

تجمّدتُ. أرهفتُ السمع. اسمي كميل، لكنّهم هنا ينادونني بـ«الأكاديمي». هذا هو الواقع: الجرار الزراعي على الجانب الآخر صامت، وصمته ينذر بالشؤم. وذلك الذي يتوعّد بتشويه وجهي، ـ هو أباكير. يصرخ عليّ، مرّة تلو الأخرى، يشتم، وأحيانا يلوّح بقبضته. عدد الجرّارات اثنان، وأنا ـ وحيد. ويتوجب عليّ أن أُحضر لهما، على هذه العربة ذات الحصان الواحد الماء، والوقود، والزيوت، وإلى ما هنالك من أشياء. تبتعد الجرارات كل يوم أكثر فأكثر عن نبع الماء الوحيد في المنطقة كلّها. يبتعدون أكثر فأكثر عن معسكرنا الحقلي الوحيد في هذه الأرض الشاسعة، حيث يوجد صهريج الوقود. لقد حاولوا نقله، لكن إلى أين، ـ إنّه أيضاً مرتبط بالماء. وأباكير هذا، لا يريد أن يعرف شيئاً.

يصرخ «سأشوّه وجهك لسبب بسيط فحسب، نعم لسبب بسيط!

مكتبة الفكر الجديد

لست هنا من أجل إضاعة الوقت بسبب طالب ـ يسيل اللعاب لا شعورياً من فمه!».

وأنا لست طالباً أبداً. ولم أحاول حتى الالتحاق بالمعهد. أتيتُ إلى هذا المكان، إلى أنارخاي بعد الثانوية مباشرة. قالوا لنا في الاجتماع، عندما أرسلونا إلى هنا، بأننا نحن، وهذا يعني أنني واحد منهم، «الفاتحون الأماجد، والطلائع الشجعان إلى المناطق المستصلحة». هكذا كنت أنا في البداية. أما الآن؟ من المخجل الاعتراف: «أكاديمي». هكذا يناديني أباكير. أنا المذنب في ذلك. لا أستطيع إخفاء أفكاري، أحلم بصوت عال، كالطفل الصغير، وهذا ما يجعل الناس يسخرون منّي فيما بعد. وليت أحدهم يعلم، بأنني لست وحدي المذنب في ذلك، بقدر ما يقع الذنب على ألدياروف معلمنا في مادة التاريخ. الباحث في طبيعة المنطقة! لقد أطعتُ صاحبنا الباحث، وها أنا الآن أدفع الثمن...

وهكذا، قبل أن يمتلئ الدلو خرجت من بقعة الطين إلى الطريق. والحقيقة أنه ما من طرق هنا على الإطلاق. وهذه الدربُ إنما أنا من مهّدها بهذه العربة.

يقف الجرار في نهاية الحقل الأسود المترامي الأطراف، وفي أعلاه ـ على سطح غرفة القيادة ـ أباكير. ما زال يصرخ بي، وهو يلوّح بقبضته، ويشتم بكل ما عرفت البشريّة من شتائم.

مكتبة الفكر الجديد

وسطّتُ الحصان. أخذ الماء يتناثرُ من البرميل على ظهري، لكنني انطلقت بسرعة كبيرة.

أنا من طلبت القدوم إلى هنا. لم يجبرني أحد على ذلك. الآخرون ذهبوا إلى كازاخستان، إلى الأرض البكر الحقيقية، التي كتبوا عنها في الجرائد. أما إلى أنارخاي فأنا الوحيد الذي طلبتُ القدوم. هنا، إنما هو الربيع الأول الذي بدؤوا العمل فيه، نعم وبجرّارين فقط. اختبر المهندس الزراعي سوروكين ـ وهو المسئول عنّا جميعاً ـ العام الماضي زراعة الشعير البعلي في حقل صغير. يقولون إنه حصل على نتيجة لا بأس بها. وإذا ما حصل على النتيجة نفسها هذه السنة، فستُحلُّ مشكلةُ العلف في سهوب أناراخاي.

لكننا ما زلنا نعمل بحذر. ذلك أن صيف أنارخاي حارٌّ جداًوجاف: حتى الطحالب الحجرية ـ تاش تيكن ـ كانت أحياناً تتيبّس من جذورها. ولم تقرر حتى الآن تلك الكالخوزات التي تحضر المواشي إلى هذه البقاع شتاءً أن تزرع الأعلاف، بانتظار ما ستتمخض عنه تجارب الآخرين... لذلك نحن هنا جميعاً، يمكن عدّنا على الأصابع: سائقا جرارات اثنان، وعاملا مقطورة، وطاهية طعام واحدة، وأنا ـ ناقل الماء ـ والمهندس الزراعي سوروكين. هذا هو جيش فاتحي الأراضي البكر. لا أظن أن أحداً يعرف عنّا، نعم ونحن لا نعلم ماذا يحدث في هذا الكون. ينقل سوروكين أحياناً

مكتبة الفكر الجديد

خبراً ـ ما فحسب. إنّه يسافر على ظهر الجواد إلى الرعاة في الوديان المجاورة، يتشاجر من هناك مع القيادة عبر جهاز اللاسلكي، وحتى الأخبار الموجزة ينقلها من أجل المُساءَلة.

نعممم، وأنا كنت أعتقد ـ أن الأرضَ البكرَ، شيءٌ عظيم! المسؤول عن ذلك هو مؤرخنا ألدياروف. لأنه هو من رسم لنا ـ نحن التلاميذ ـ أنارخاي: «سهب الشيح الفاخر، الذي لم يُلمس منذ قرون، يمتد من جبال كوردايسك وصولاً إلى غابات قصب البلخاش! وحسب الأساطير، فقد اختفت دون أثر، من تلال أنارخاي في الأزمان الغابرة، قطعان ماشية تائهة بأكملها، ورعت فيها فيما بعد، أسراب من الخيول البريّة. أنارخاي ـ الشاهد الصامت على العصور العابرة، وساحة المعارك التاريخية، ومهد القبائل المتنقلة. وقدر هضبة أنارخاي اليوم، أن تصبح أغنى منطقة للثروة الحيوانية المستقرة...» وهكذا على المنوال نفسه...

كان من الممتع أن تنظر إلى أنارخاي على الخريطة، هناك كنا ننظر إليها في راحة يد المعلم. أمّا الآن؟ أنقل منذ الفجر عربة الماء الحمقاء هذه، ذهاباً ـ وإياباً. ومساءً أعتني بصعوبة بالحصان وأقدم له عشباً مضغوطاً، نُقلَ إلى هنا بالسيارة. ثم آكل دون أية شهية، ما تقدمه لي ألديي، بعد ذلك أرتمي في الخيمة للنوم، وأنام نومة الميت.

ما قيل من أن أنارخاي سهبُ شيحٍ غنيٍ ـ هو صحيحٌ تماماً.

مكتبة الفكر الجديد

يمكنك قضاء ساعات متجولاً هنا ومتمتعاً بجماله، لكن لا وقت لذلك!

كان يمكن لكلِ شيء أن يكون على ما يرام، لولا أن أمراً واحداً لا يمكنني فهمه: بماذا لم أَرُق لأباكير، ولأي سبب يكرهني هذا الكُره؟ لو كنت أعلم ماذا ينتظرني هنا... كنت مستعداً لمواجهة ـ كما يقال ـ أية صعوبات عشوائية طارئة. أنا لم آتِ إلى هنا ضيفاً. لكنني لسبب ما لم أفكر أبداً، بالناس الذين سيتعين علي أن أعيش وأعمل معهم؛ الناس هم نفسهم في كل مكان...

سافرتُ إلى هذا المكان يومين كاملين في الشاحنة. ونقلوا معي في صندوق المقطورة عربة الماء الصغيرة هذه ذات العجلات الأربعة، لم أشك حينها، بأنّها هي بالذات ستكون السبب، في تجرعي هذا الكم الكبير من المصائب.

إذاً قدمت إلى هنا في مقطورة. اعتقدتُ أنني سأعملُ مع الجرار ربيعاً واحداً، أتعلم وأصبح أنا سائقاً للجرار. هذا ما قالوه لي في المنطقة. وبهذا الحلم توجهت إلى أنارخاي. لكن عندما وصلت، اكتشفتُ وجود عمال مقطورات في المكان، وأنني إنما أرسلتُ إلى هنا ناقلاً للماء. طبعاً كان عليّ أن أرفض مباشرة وأعود إلى البيت. وبخاصةٍ أنني ما كنت على معرفة بالأطواق والمحاور من قبل أبداً. نعم وبصورةٍ عامة ما عملتُ في أي مكان قبل اليوم، بلى ساعدت أمي فحسب أيام السبت في معمل السكر. والدي استشهدَ على

مكتبة الفكر الجديد

جبهة القتال: لا أذكره. وهكذا قررت أن أبدأ حياتي بمفردي... ومع ذلك كان عليّ أن أعود مباشرة.

شعرت بالخجل. كم كانت الضوضاء مرتفعة في الاجتماع حينها! وأمي ترفض السماح لي بالذهاب، كانت تحلم أن تراني طبيباً. لكنني أصررتُ، وأقنعتها ـ بأنني سوف أساعدها. حاولت جاهداً الالتحاق، وانتظرت بفارغ الصبر أن أنطلق مسافراً بأقصى سرعة. كيف كنت سأنظر في عيون الناس، لو عدتُ مباشرة؟ تعيّن عليّ الجلوس فوق عربة نقل المياه. مع ذلك مصائبي لم تبدأ منها.

في الطريق إلى هنا، وقفتُ داخل هيكل المقطورة، أمعن النظر من حولي: هاهيذي أنارخاي الأسطوريّة، والقديمة! تعدو السيارة بسرعة على طريقٍ لا ملامح له، ضائعٍ وسط السهب الأخضر الجبلي، متموّجٍ قليلاً بالضباب الأزرق في البعيد. الأرض ما زالت تتنفس بالثلج الذائب. لكن كان بالإمكان تمييز رائحة مرة فتية يحملها الهواء الرطب، لشيح أنارخاي المدخّن، والبراعم المخترقة لجذور أغصان السنة الفائتة اليابسة المتكسرة.

حملت الرياح المعاكسة لنا معها صوت رنين فضاء السهب ونقاء الربيع. كنّا نسارع نحو الأفق، لكنّه كان يبتعد عنّا في قممٍ غير واضحةٍ من التلال البعيدة، كاشفاً ومفتتحاً خلف الروابي سهول أنارخاي الجديدة والجديدة.

خيّلَ إلي، أنني أسمع أصوات الأزمنة الغابرة. ارتجفت الأرض

مكتبة الفكر الجديد

ومادتْ تحت وقع آلاف الحوافر. اجتاحت المكان موجة محيطيّة، من نعيق وزئير وحشي، وسريّة من الفرسان الرحّل تحمل الرماح والرايات، تقف على أهبة الاستعداد. جرت أمام عيني مجازر رهيبة. رنين معادن، صراخ ناس وصراعهم، ضرب حوافر الخيول. وأنا نفسي كنت في مكان ـ ما في هذه المعركة الحامية... لكن المعارك خفّت وتلاشت، وحينها انتشرت في ربيع أنارخاي الخيمُ البيضاء، وتطاير فوق المخيمات دخان الجلّة[1]، رعت من حولها قطعان الأغنام وقطعان الخيول، وسارت تحت وقع رنين الأجراس قوافل الإبل، دون أن يعرف أحد من أين وإلى أين... أعادني بوق القطار الطويل والمتتابع إلى الواقع. ابتعد القطار وهو يرمي سحباً من الدخان الكثيف على المقطورات، وكأنه حصان جامح ذو ذيل متدفق طويل وملتوي. هكذا بدا لي المشهد من بعيد. وأخذ القطار يصغر ثم يصغر، وتحوّل إلى خُطاطةٍ صغيرة قاتمة، ثم اختفى عن النظر.

اجتزنا سكة القطار عند مفترق ضائع في الصحراء وتابعنا مسيرنا إلى الأمام...

أعطيت لنفسي أهمية في اليوم الأول لوصولنا. لم أتخلّص بعد

---

(١) هي أقراص تصنع من مخلّفات المواشي والبهائم، تجفف تحت ضوء الشمس وتستخدم وقوداً، والطريقة نفسها متّبعة في الكثير من بقاع الريف العربي (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

من الرؤى، التي انتابتني في الطريق. وقفتْ ليس بعيداً عن مخيم الحقل امرأة حجرية قديمة، رمادية، منحوتة بخشونة في صخرة من الغرانيت، منتصبةٌ هنا منذ قرون، وكأنها في دورية حراسة، مغروسة بعمق في الأرض وتنظر إلى البعيد، نظرة غبيّة لا حياة فيها. عينها اليمنى مشوّهة قليلاً، ومتآكلة بسبب الرياح والأمطار، يهيأ للناظر أنها دامعة، فارغة وتخيفك بتضيّقها الشرير متساميةً فوق القرون الصعبة المتماثلة. تمعّنت طويلاً في المرأة، وعندما اقتربتُ من اليورتا[1] فيما بعد، سألت سوروكين:

ـ من باعتقادك أيها الرفيق المهندس الزراعي، استطاع أن يضع هذا التمثال هنا؟

كان سوروكين يستعد للذهاب إلى مكان ـ ما.

قال قبل أن ينطلق وهو يعتلي سرج الحصان:

ـ يجب أن يكون الكلميكيون[2] من فعل ذلك.

لم يشفِ فضولي هذا الجواب، وكأن أحداً ـ ما سحب لساني، فتوجهت بهذا السؤال إلى سائقي الجرارات وعمال المقطورات، الذين لم أتمكن من التعرف إليهم كما يجب:

---

(١) خيمة بيضاء ذات قبّة في وسطها، يضربها الرّحل من قبائل آسيا الوسطى خلال تنقُّلهم (المترجمان).

(٢) الكلميك قومية تعيش في أسيا الوسطى، والآن يتمتّعُ أبناؤها بجمهورية خاصة في عداد جمهوريات روسيا الاتحادية، تسمّى جمهورية كالميكيا (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

ـ لا، ليس ما قاله دقيقا تماماً. الكلميكيون كانوا في هذه المنطقة في القرن السابع عشر. وهذا النصب التذكاري يعود إلى القرن الثاني عشر. من وضع المرأة على ما يبدو هم المنغوليون زمن غزواتهم العظيمة على الغرب. لقد أتينا نحن القيرغيزيون معهم من ينساي إلى هنا، إلى مناطق تيان ـ شانسك.

لقد عاشت قبلنا في هذه البلاد قبائل الكيبتاك، وقبلها بشرٌ شقر ذوو بشرة فاتحة وعيون ملوّنة.

كنت سأتعمّق أكثر في التاريخ لولا أن قاطعني الشخص الذي يرتدي بزة عمل، الواقف إلى جانب الجرار. كان هذا أباكير:

ـ آآي أنت، أيّها الصغير! ـ قذفني بنظرة ضجرة مريبة ـ إنّه لأمر مؤلم أنت، أيها العالم. تعال واحضر من اليورتا حقنة مملوءة بالشحم.

تبيّن أنني أحضرت له حقنة مملوءة بزيت التزييت.

ـ آه منك، أيّها الأكاديمي ـ تمتم بازدراء، ملقياً نظرة سريعة على وجهي، بعينيه الشوكيتين المعرّقتين بالاحمرار ـ تلقي علينا نحن الجهلاء محاضرة، وأنت لا تستطيع التمييز بين الجمل والفرس.

من هنا أتى لقب «الأكاديمي».

ها أنا أقترب بعربة الماء، وهو مستمر في الركض نحوي، متعثراً في الأرض المحروثة، وصائحاً بي:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ما بك تزحف مثل القملة المسمّرة، كم من الوقت تأمرنا أن ننتظرك؟ سأخنقك أيها الجرو، ولينقصنا أكاديمي يسيل مخاطه!

اقتربت من الجرار صامتاً. ما الذي يمكنني قوله لتبرير تأخري؟ أنا المذنب في توقف الجرار، هذه حقيقة. ومن الجيد أن عاملة المقطورة كاليبا دافعت عنّي قائلة:

ـ ما بك أباكير، اهدأ، اهدأ! صراخك لا يساعد في شيء. أنظر إليه، كم هو مُتعب. المسكين قد أُرهق تماماً ـ أخذتِ الدلو من يدي المرتجفتين وسكبت الماء على مبرّد الجرار. ـ إنّه يحاول جهده دون أوامر. أُنظر إنّ جسمه كلّه مبلل، كنتَ ساعده على عصر...

قال أباكير مزمجراً:

ـ وماذا يفيدني ذلك!! كان عليه أن يبقى في بيته يقرأ كتبه.

قالت كاليبا محاولة إقناعه:

ـ عليك أن تتوقف! كم من الشر تحمل في داخلك! ليس جيداً ذلك يا أباكير.

ـ إذا غفرَ المرءُ كل شيء واعتاد على ذلك ـ فسيموت دون مقابل. سيسألونني أنا عن مدى إنجاز الخطة، ولن يسألوك أنتِ. طبعاً ما شأنكم أنتم، إذا ما دمّرني هذا العالِمُ الأبله!

لقد استغلّ موضوع دراستي!! لماذا درست؟ ومن أين صعد إلى دماغي ذلك المؤرّخ ألدياروف؟

مكتبة الفكر الجديد

سأحاول الذهاب من هنا بسرعة. ينتظرني هناك أيضاً في الطرف الآخر من الحقل سائق الجرار ـ سادابيك، إنّه شخص مُسنّ، وجدّي، ومعَ أنّه يغضب، لكنّه لا يصرخ.

أقلع محرّك الجرار من خلفي. تحرّك جرار أباكير من مكانه وانطلق. تنفستُ الصعداء وتجمّدت من البرد تحت القميص السميك المبتل. ما هو السبب الذي جعل أباكير ينشأُ هكذا ضاراً وغضوباً؟ مع العلم أنّه مازال شاباً، ولم يتجاوز الثلاثين من العمر بعد، وجههُ حقيقة ثقيلٌ بعض الشيء، تظهر نتوءاتٌ على جبينه، ويداه ثابتتان، ومخلبيّتان، لكنّ مظهره وقور. أمّا عيناه فغير مريحتين، شرّيرتان. وإذا ما تدفق الدم قليلاً فيهما، عليك أن تستعد وتصمد، حينها لا يسألُ عن أي شيء.

حدث منذ فترة قريبة لنا الأمر التالي. هطل المطر خفيفاً ومتواصلاً طوال الليل، كان يهمس بشكل ممل ورتيب، وسالت قطرات من الماء أسفل اللبّادة. ولم يتوقف الهطول في الصباح. أصابنا الضجر في اليورتا بسبب الكسل الذي فُرض علينا. المهندس الزراعي سوروكين غادرنا ـ لديه أعمال كثيرة حتى أثناء هطول المطر. فهو المسؤول عن الثروة الحيوانية، ولذلك لم يكن لدى هذا الإنسان وقت للراحة، ولو لدقيقة ـ يوم طويل على سرج الحصان.

عندما خفّ هطول المطر قليلاً، وضع عامل المقطورة

مكتبة الفكر الجديد

إيسيركيب، الأخ الأصغر لسادابيك، السرج على حصاني وذهب أيضاً إلى الرعاة في مكان ـ ما. وأخذتْ ألديي وكاليبا الدلو، وذهبتا لإحضار الماء من النبع. بقينا في اليورتا ثلاثة ـ أباكير، وسادابيك وأنا.

صمتنا بتجهّم، وانشغل كلّ منّا بعمله الخاص. اتكأ أباكير، ومدّد رجليه، وأخذ يدخّن. جلس سادابيك على المصطبة عند الموقد، وبدأ يخيّط بالمسلّة الخرق في موضع تسرّب الماء في جزمته بخيط مشمّع. وانزويت أنا في الزاوية وبدأتُ القراءة.

سرت في اليورتا رطوبة وكآبة. انبعثت من اللبّادة المبتلة رائحة الأغنام. تساقطت بصورة متقطّعة من الأعلى قطرات ماء كبيرة صفراء مثل الشاي. واستمر تواترُ هطول مطر خفيف في الخارج، وشكل بركاً صغيرة على الأرض.

تثاءب أباكير من الملل، تمطّى محدثاً فرقعات في مفاصله، زرَّ عينيه، ودون أن ينظر قذفَ عقب سيكارته فسقطَ على حافة سجادة اللباد. دخّن الشعرُ المحروق مباشرة.

رفع ساديبيك جمرة العقب ورماها في الرماد.

قال وهو يسحب المسلّة من جلد الحذاء:

ـ كن أكثر حذراً، هل يصعب عليك النهوض من مكانك؟

رفع أباكير رأسه متحدّياً، ثم قال:

ـ ما الذي جعلك تنتفض؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ احترقت اللبادة!

هزأ أباكير منزعجاً:

ـ يا لها من ثروة، شمّع حذائك القذر، شمّع، لا تحتاج أنت إلى حذاء آخر!

ـ المسألة ليست في الثروة. أنت لست وحدك هنا، ولست في بيتك.

ـ أعرف أنني لست في بيتي! لو كنت في بيتي، لرفضت التحدث إليك. هل تفهم أيها الشنيع في السروال الجلدي؟ نعم، واضح، أنّ الله يعاقبني، بالجلوس في أنارخاي المنفى هذا، حيث المكان هنا لأولئك المجانين، أمثالك وأمثال زوجتك!

شدّ سادابيك الشمّاعة بقوّة. فطارت المسلّة من بين يديه، إلى خلف ظهره. نظر طويلاً إلى أباكير نظرة كره، ثم تقدّم ممتعضاً إلى الأمام، يقبض في إحدى يديه الجزمة، وفي الأخرى يمسك، بالشمّاعة الممدودة كالوتر.

ـ لا بأس، فلنقل أنا مجنون، وزوجتي مجنونة، لأنها قدمت معي إلى هذا المكان كي تطعمنا جميعاً! ـ قال وهو يتنفس بصعوبة ـ فهل الأنارخيّون الآخرون برأيك، منفيّون؟ هل أنت الذي طردتهم إلى هنا؟ أجبني أيّها النذل! ـ قال ذلك صائحاً، ثم قفز سادابيك من مكانه، ممسكاً بساق الجزمة المهترئة بيده اليمنى.

مكتبة الفكر الجديد

هرع أباكير إلى مفتاح الصامولات الذي كان مرمياً جانباً، وسوّى وضعية رأسه بين كتفيه مستعداً لتوجيه ضربة.

خفتُ أنا. المشهد كان مرعباً. باستطاعتهما قتل بعضهما بعضاً.

هرعت نحوهما قائلاً:

ـ توقفْ أباكير، لا تضربه، سادابيك تراجع لا تشتبك معه! ـ توسّلت إليهما، ضائعاً بين أرجلهما.

دفعني سادابيك جانباً، وأخذا يدوران داخل اليورتا، كأسدين قبيل المعركة، يحملق واحدهما في عيني خصمه. ثم قفزا في اللحظة نفسها من مكانيهما، وأزّ مفتاح الصامولات في الهواء بمحاذاة رأس سادابيك، لكنّه استدار في اللحظة الأخيرة والتقط المفتاح بيديه الاثنتين. بيد أنّ أباكير كان قويّاً، رمى خصمه تحته، وأخذا يدوران على الأرض، يشهقان ويشتمان. قفزت نحوهما، واندفعت بكل جسدي نحو المفتاح، الذي رماه أباكير، وأخيراً تمكنت من الإمساك به، وخرجت مسرعاً من اليورتا.

ناديت المرأتين العائدتين من النبع صائحاً:

ـ ألديي! كاليبا! أسرعا، أسرعا إلى هنا! إنّهما يتشاجران، وسيقتلان...

وضعت المرأتان الدلو واندفعتا نحوي. وعندما هرعنا جميعاً إلى داخل اليورتا، كان سادابيك وأباكير مازالا يتدحرجان على الأرض. تمكنّا من سحبهما، مدمّيين وممزقي الثياب. سحبتْ ألديي زوجها

مكتبة الفكر الجديد

إلى الخارج. لكنّ أباكير تمكّن من الإفلات من أحضان كاليبا وصاح مهدداً:

ـ انتظر، أيّها الكلب الأعرجّ، سأجعلك تتوسّل الرحمة، أيها القذر السيئ، وستعرف عمّا قريب من هو أباكير!.

اقتربتْ ألديي الضخمة والجافة من أباكير وقالت في وجهه مباشرةً:

ـ جرّب والمسه! سأقتلع عينيك من مكانهما! وسأجعلك لا تستطيع التعرف إلى نفسك!

أمسك سادابيك زوجته من يدها بهدوء وهو يقول:

ـ لا تتعبي نفسك ألديي، إنّه لا يستحق...

خرجت أنا في هذه اللحظة، وبحثت عن مفتاح الصامولات الذي رميته مضطرباً، ابتعدت عن اليورتا ودفنته في التراب بالقرب من المرأة الحجرية. جلستُ وفجأة أخذت في البكاء. هزت جسدي كله التنهدات الصمّاء المختنقة. لم يرني أحد، وأنا نفسي لم أفهم ماذا يحصل لي. المرأة الحجرية وحدها، كما لو أنها أنصتت إلى حزني، نظرت إليّ نظرة ارتياب شريرة من محجر عينها السوداء الفارغة.

امتدّ ضباب السهب الرطب من حولي، هادئاً ومتعباً. لا شيء لا صوت واحد يزعج أبديته، وهدوءه العميق، أنا فقط الذي ما زلت

مكتبة الفكر الجديد

أجهش بالبكاء وأمسح عينيَّ. جلست هنا فترة طويلة، طويلة جداً، حتى حلول الظلام.

هكذا أعيش أنا في سهوب الشيح الفاخرة تلك... أحاول بكل جهدي، لكن مع ذلك لم أحقق شيئاً حتى الآن. أباكير اليوم افتعل مشكلةً مرّة أخرى. كيف ستكون الحال فيما بعد، عقلي لا يستوعب. مع ذلك يجب أن لا تنهار إرادتي. يجب أن تصمد هناك، في المكان الذي تقف فيه. مادمت لم تسقط بعد.

ـ هيّا يا سيركو[1]، تحرّك! تحرّك بسرعةً! يجب علينا أن لا نيأس: العمل لا ينتظر...

(١) هو سيركو إيفان دميتريفتش: زعيم قوزاقي في منطقة زابوروجيا التابعة لأوكرانيا (١٦١٠ ـ ١٦٨٠)، أثناء فترة زعامته، خاض ٢٤٤ معركة كبيرة وصغيرة، خرج منها جميعها منتصراً. (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

٢

في اليوم التالي استيقظتُ مع الفجر، قبل المعتاد. لقد قررت بيني وبين نفسي حينما كنت مستلقياً مساء أمس، في اليورتا: سأحاول المستحيل لتغيير الوضع الذي أنا فيه، وسأتصرّف بطريقة، تمنعُ أحدهم ليس فقط أن يتجرّأ على تأنيبي، بل أن يوجّه اللوم لي أيضاً. يجب أن أثبت في النهاية، بأنني لست أقل شأناً من الآخرين.

أوّل عمل قمتُ به، هو أنني وزَّعتُ الوقود وسكبته بنفسي في خزّاني الجرارين. ثم توجّهت مع برميل الماء إلى النبع، كي أسكب الماء في المبّردات قبل بداية العمل. ثم كان عليّ أن أجد الوقت لتناول الفطور والعودة مرة أخرى، دون أن أضيّع أية دقيقة لنقل المياه. سار العمل حتى الآن كما خططت له.

صعدت الشمسُ في هذه الأثناء من خلف دخان الأفق الأبيض. لقد تأخرت طويلاً، وتباطأت في الشروق، كأنّها تخشى أن تلقي نظرة على طول وعرض الأراضي الأنارخية كلّها. ثم ارتفعت ونظرت من زاوية واحدة. لا يوجد شيء أجمل من السهب عند الفجر! وكأنّ بحراً لازوردياً كبيراً انسكبَ وتجمّدتْ أمواجُهُ

مكتبة الفكر الجديد

الزرقاء، وأخذت تتلألأ هنا وهناك بالألوان الخضراء الداكنة والصفراء.

آه يا أنارخاي، آه أيّها السهب العظيم! لماذا أنت صامتٌ، بماذا تفكّر؟ ماذا تخفي في نفسك من الأزمنة الغابرة وماذا ينتظرك في المستقبل؟

ليست مصيبة، أن أكون مجرّد ناقل للمياه. إنّني مع ذلك سأحكم فوق هذه الأرض، وسأتحكّم بالآليات. لأنّ هذين الجرارين الاثنين، وكل ما نفعلهُ هنا ـ إنما هو بداية البدايات فقط. لقد قرأت في مكان ـ ما، كما لو أنّ الباحثين قد اكتشفوا تحت أنارخاي أنهاراً كبيرة من المياه. من الممكن أن ذلك ما زال محض توقع. لكن وفي جميع الأحوال، أنا أثق، بأن الناس ستروي هذه الأرض وستنتشر في أنارخاي الحدائق الخضراء، وستجري المياه في الأثلام الباردة وستقيس الرياح المحليّة حقول الحبوب الذهبية. وستنمو هنا المدن والقرى، وسيسمّي أحفادنا هذا السهب دولة أنارخاي المباركة. وبعد سنوات عديدة، عندما يأتي إلى هنا شاب مثلي، لا أعتقد أنّه سيكون مجبراً على التجوال ذهاباً وإياباً في السهب مع ناقلة ماء صغيرة ويستمع إلى شتائم مستبدّ ما.

أنا ومع ذلك لا أحسده، لأنّي كنت أول من وصل إلى هنا!...

أوقفت ناقلة الماء، وأنا أجول بنظري على الفضاءات الصباحية.

مكتبة الفكر الجديد

كنت في هذه اللحظة أسعد الناس، وأكثرهم قوّة، وحتى أجمل إنسان على هذه الأرض. نعم ولتكن دولة أنارخاي مباركة!...

خرجت الشمس أخيراً من خلف الأفق، ضخمة، وساطعة.

بدأ النهار بداية لا بأس بها. لم تتوقف المحركات على الأقل ـ لم أتأخر في نقل المياه. لكن المساء ما زال بعيداً...

في واحدة من جولاتي لقيتُ قطيعاً صغيراً من الأغنام والحملان عند النبع. اقتادتهُ إلى هنا إحدى الفتيات. سقتهُ الماء من الساقية، ولم تسمح لهُ بالاقتراب من النبع. من أين انبثقت هكذا؟ أعتقد أنها، قدمت من صوب المسيل المتوضّع في الطرف الآخر، هناك خلف التل ذي القمتين، حيث يتوزع الرعاة في تلك المناطق. وجه الفتاة مألوف نوعاً ـ ما بالنسبة لي. لا أذكر في أية مجلّة، شاهدت ذات مرة فتاة صينية شابة، لها خال على جبينها مثل هذه الفتاة. لذلك تراءى لي على الأرجح أنني شاهدتها في مكان ـ ما من قبل. نظرنا أحدنا إلى الآخر بصمت. ظهوري هنا، كان مفاجئاً بالنسبة لها، تماماً مثل ظهورها في هذا المكان بالنسبة لي. قفزت عن ظهر العربة كما لو أن ذلك لم يحدث من قبل، وبدأت منشغلاً أغرفُ الماء من النبع لملء البرميل.

ارتوت الأغنام في هذه الأثناء، وأخذت الفتاة تبعدها جانباً. وعندما مرّت من جانبي، سألت:

ـ ما اسم هذا النبع؟

مكتبة الفكر الجديد

تساءلتُ وأنا أنظر إلى بركة الماء المستديرة، حيث كانت تتموج المياه التي عكّرتها بهدوء، في بعض الأماكن منها. بالفعل يجب أن يكون لنبعنا الوحيد اسم ما! ركدت المياه في الوقت الذي كنت أفكر فيه، وأصبحت شفافة وصافية من الأعلى، وقاتمة في العمق. قلت وأنا ألتفت إلى الفتاة:

ـ عينُ الجمل!

وهزت خالها وابتسمت قائلة:

ـ نبع عين الجمل؟ جميل! إنّه يشبه في الواقع عين الجمل، متأمّلٌ مثلها...

أسهبنا في الحديث. وتبيّن أن الفتاة قادمة من مناطقنا. تعرف حتى معلمي ألديريايف. أوه، كم هو رائع ـ أن تسمع اسم معلّمك المفضّل هنا، في السهب، من فتاة مجهولة، فتاةٍ أعتقد أنها قدمت إلى هنا، إلى أنارخاي كذلك، غير بعيدٍ عن تأثير المعلم نفسه. لقد أنهت الثانوية العام الماضي، ليس ثانويتنا، بل ثانوية أخرى، وتعمل الآن في الاعتناء بالحملان وأمّهاتها ـ مساعدة للراعي.

قالت الفتاة:

ـ يوجد عندنا في الحظيرة، ماء بئر مالحة. وقد سمعتُ، بأنّه هنا في مكان ما، يوجد نبع. رغبتُ أن أرى بنفسي المياه العذبة، وأسقي الحملان، دعها تعرف، كيف تكون المياه الحقيقية.

مكتبة الفكر الجديد

سأربيها، وأسلمها للقطيع، وسأذهب في الخريف لمتابعة الدراسة في الجامعة...

قلت لها:

ـ أنا أفكر كذلك في متابعة الدراسة مع الوقت، لكن سأدرس الميكانيك، لأنهم أرسلوني إلى هنا لأعمل مع الجرار، أمّا هذا.. ـ أشرت إلى البرميل، ـ فإنني أساعدهم مؤقتاً... سيرسلون ناقل مياه آخر...

آه، عبثاً ثرثرتُ، طبعاً، لم ألحظ كيف انطلق لساني. شعرت بحرارة لا تطاق، بسبب الخجل الذي انتابني، لكن ابتردتُ بسرعة.

صدح من بعيد صوت أباكير الذي لا يطاق:

ـ إي ـ إي، أيها الأكا ـ ديمي، سأشوّه وجهك ـ ك ـ ك!

ـ آه، لقد أسهبتُ في الحديث!

سألت الفتاة، مستغربة:

ـ ما الذي يجري هناك؟

تمتمت محمرّاً:

ـ لا شيء، يجب نقل الماء.

اقتادت الفتاة الأغنام في طريقها. أمّا أباكير، فكان يصيح بأعلى صوته، من على ظهر الجرار، ويلوّح بقبضاته في الطرف البعيد من الحقل.

مكتبة الفكر الجديد

أجبرت الحصان على الركض، وتمتمت في نفسي يائساً:

ـ إنني قادم، قادم! أصمت! يجب عليك ألا تصرخ بوجود الغرباء!

تلاطمت المياه في البرميل، وتناثرت، والمشكلة أنّها بللتني من رأسي حتى قدمي. دعها! حتى لا يتبقى قطرة ماء! لا يمكنني تحمّل هذه المهزلة أكثر!

قفز أباكير من غرفة القيادة، وكما في المرة السابقة، أسرع نحوي. أوقفت الحصان قائلاً:

ـ إذا ما استمريت في الصراخ بهذه الطريقة، سأترك العمل واذهب من هنا!

ارتبك بسبب المفاجأة، ثم صفر وشتم وتابع قائلاً:

ـ كانت أنارخاي موجودة، بدونك أيها الأكاديمي السائل مخاطه، والآن لن تختفي، دعها تحترق! أغرب، وابتعد من هنا إلى حيث تشاء! إنّ هذا التلميذ بدون سروال يفكر أيضاً بأن يعضّني!

قفزت من العربة، ورميت الرباط خلف الجرّار وانطلقت مبتعداً.

نادتني كاليبا صائحة:

ـ قف يا كميل! لا تذهب! إلى أين أنت.. توقف!

وهذا ما زادني إصراراً، فأسرعت المسير.

مكتبة الفكر الجديد

تناهى إلى مسمعي صوت أباكير قائلاً:

ـ لا توقفيه، دعيه يغرب! سنعمل بدونه!

وبّخته كاليبا قائلة:

ـ أنت وحش، وحش، ولست إنساناً، ما الذي فعلته!

سمعتهما لفترة طويلة، كيف كانا يصرخان ويتبادلان الشتائم.

ابتعدت أكثر فأكثر دون أن أتمهّل. سيّان كان بالنسبة لي، إلى أين أذهب. لم يكن أي كائن حيّ من حولي، والطرق كانت مفتوحة أمامي في كل الاتجاهات. اجتزت النبع، ومعسكر الحقل، ومررت أسفل التل، هناك، حيث تقف المرأة الحجرية. ودعتني العجوز، وهي تبتسم شزراً، بنظرة سوداء فارغة وبقيت واقفة مغروسة بثقل في الأرض، كما كانت واقفة منذ قرون. مشيت، دون أن أفكر بشيء. كانت عندي رغبة واحدة فقط: الخروج، الخروج من هنا بأسرع وقت ممكن، ودعّ أنارخاي اللعينة هذه، تتمتع بصورة قفاي.

انبسط السهب أمامي، فارغاً، لا مبالياً. مرّت التلال، والمنحدرات، والهضاب كلّها من حولي، واحدة تلو الأخرى حتى القرف. من صمّم هذه الرتابة، الكئيبة الميّتة؟ لماذا أنا، المحتقر والمهان، يتوجب عليّ أن أقيس فسحات الشيح المرّ الهرمة هذه، الممتدة بلا نهاية؟ أينما نظرت ـ صحراء هامدة في كل مكان. وعن ماذا يجب أن يُسأل الإنسان هنا؟ أما من أماكن أخرى يستطيع أن

مكتبة الفكر الجديد

يعيش فيها على الأرض؟ بدت أحلامي الصباحية هزيلة ومثيرة للسخرية.

سخرتُ من نفسي، وأنا أشعرُ ـ بكلّ كياني ـ بعجزي الشخصي، وبتشرّدي، وباكتئابي:

«هذا هو سهب الشيح الفاخر، هذه هي دولة أنارخاي!».

السماء فوقي كانت عالية ـ عالية، والأرض انبسطت من حولي شاسعة ـ شاسعة، وأنا نفسي أبدو إنساناً صغيراً ـ صغيراً، ووحيداً، يتجوّل هنا، وغير معروف هو من أين، يلبس قميصاً مبطّناً، وحذاءً من الخيش مهترئاً، ويعتمر قبعةً باليةً.

هكذا كنت أمشي، لا توجد مسالك، أو طرقات، كنت أمشي فحسب. فكّرت: «سأصل إلى مكان ـ ما، إلى جسر للسكة الحديدية، وسأمشي في المسارات، وهناك وعلى أي مفترق كان، سأتعلّق بقطار لشحن البضائع، وأذهب إلى الناس...».

عندما دوّى خلفي وقع حوافر وشخير حصان، لم ألتفت. إنّه سوروكين. لا يمكن أن يكون أحد سواه. سيبدأ الآن الاستنكار، سيرجوني، لكن ـ فليذهب إلى الجحيم! لن أعود، ولن أفكر في ذلك أبداً.

ناداني سوروكين بصوت خافت:

ـ توقف!

توقفت. اقترب سوروكين على الحصان المتعرّق. نظر إليّ

مكتبة الفكر الجديد

بصمت بعينين زرقاوين مُتمعنتين من تحت حاجبين شاحبين، فتح الحقيبة الحقلية وأخرج ورقة حمراء ـ بطاقتي الكومسومولية، التي قدمتها له بفخر يوم وصولي إلى هنا.

ناولني البطاقة بهدوء قائلاً:

ـ تناول، يجب عليك ألا تتركها هنا.

لم أقرأ في عينيه لا لوم، ولا ازدراء. لم يؤنّبني ولم يشفق عليّ. كانت نظرة إنسان مثقل بالأعمال، اعتاد منذ زمن على كل أنواع المفاجآت. مسح سوروكين براحة يده شعر وجهه الأشقر الخشن، والمرهق قائلاً:

ـ إذا كنت متجهاً نحو المفترق ـ خذّ يمينك، من هناك فوق تلك الوهدة، ـ أشار إلى الطريق، ثم استدار بالحصان، وعاد من حيث أتى ببطءٍ.

تابعته بنظري مصعوقاً. لماذا لم يؤنّبني، لماذا لم يحاول إقناعي؟ لماذا يجلس هكذا متعباً على حصانه المنكّس رأسه؟ الأسرة ـ الزوجة والأطفال ـ بعيدين في مكان ـ ما، وهو هنا وحيداً يطوف في السهب لأعوام. أي إنسان هو، ما الذي يبقيه في أنارخاي الصحراوية؟

أنا نفسي لا أدري لماذا فعلت ذلك، لكنني سرت خلفه ببطء.

اجتمعنا مساء في اليورتا جميعاً. الكلّ كان صامتاً. عمّ الهدوء، ولم تكن تسمع سوى فرقعة الموقد الجافة. المذنب الوحيد هو أنا.

مكتبة الفكر الجديد

لم يبدأ الحديث بعد، وجه سوروكين المتوتّر، والمتجهّم، يوحي بأنّه يريد قول شيء ـ ما.

تمتم سوروكين أخيراً دون أن يوجه حديثه إلى شخص بعينه:

ـ كيف سيكون حالنا؟

أجاب أباكير بخبث:

ـ ماذا، هل اقترب الطوفان من أنارخاي؟

نهض سادابيك بصمت أثناء تفوّه أباكير بهذه الكلمات وخرج من اليورتا! لم يعد يتكلّم مع أباكير بعد ذلك الشجار، والآن لا ينوي على ما يبدو التدخّل في الحديث. وقف أيضاً أخوه عامل المقطورة إسيركيب من مكانه وهم بالمغادرة، لكنّه تراجع وبقي في موضعه.

علاقته مع أباكير لم تكن على ما يرام. لقد وافق إسيركيب بطريقة ـ ما على طلبي، وأبقاني على محراثه خلف جرّار سادابيك ليوم كامل، وجلس هو على ناقلة الماء. وكما هو معروف، تأخر قليلاً في إحضار الماء، وانقض عليه أباكير. لكن إيسيركيب لم يسكت على الإهانة، فهو أيضاً قادر على الشجار. إنّه يكبرني بثلاث سنوات فحسب.

لم يردّ أحد على أباكير، لذلك تابع هو نفسه الكلام قائلاً:

ـ ما الذي يمكن أن نفكّر به هنا؟ دع من عطّل العمل يقدم الجواب.

مكتبة الفكر الجديد

ـ إنّ الحديث لا يدور، حول من المذنب، ومن المحق! ـ أجاب سوروكين، دون أن ينظر إليه ـ

يتقرر هنا مصير إنسان شاب، كيف سيكون وضعه الآن.

سخر أباكير قائلاً:

ـ نعم، يا له من مصير! مصير هؤلاء الأكاديميين مقرّر منذ زمن، أناس خائبون لا يصلحون لشيء! ـ لوّح بيده دون حذر، وتابع قائلاً ـ احكم بنفسك يا سيّد سوروكين، لأي شيء يصلحون؟ في الوقت الذي كنا فيه ننتج القمح بكدحنا وألمنا، كانوا يتعلّمون لعشر سنوات، وأحيانا أكثر. لقد أطعمناهم وألبسناهم، وماذا نتج عن ذلك، ما الذي تعلّموه؟ لا يعرفون الآليات، ولا وضع السرج على الحصان، أو حتى شد حزام السرج بشكل صحيح، لا يعرفون... لماذا يجب عليّ تحمّل مسؤلياتهم؟ وما الذي يعنيني من علمهم! إذا أصبح واحدهم خبيراً بالأصنام الحجرية! وهو لا يتقن العمل. إذا كانت المسألة على هذا النحو ـ هذا يعني، فليذهب من هنا، إلى الجحيم، كي لا يعطل عمل الآخرين! وأنت سوروكين، لا تلقي عليّ اللوم، إنني أعمل بكل طاقتي، ودون عامل مقطورة، ولا أريد إعطاء الزناد لأحد. وإذا رأيتم أنكم لستم بحاجتي ـ فرجلاي لن تكونا هنا، اعتباراً من يوم غد. وما قلته، سأقوله دائماً، ولو كان الأمر لي لأرسلتُ هؤلاء الأكاديميين...

ـ كفى ـ قاطع سوروكين أباكير بحدّة، ونظر إليه قائلاً: نعلم

مكتبة الفكر الجديد

ذلك بدونك. المشكلة ليست هنا. قل لي، يا كميل، ما هو رأيك أنت؟

لم أجبه مباشرة. لقد أدركت، وأنا أستمع إلى أباكير، أن في كلماته شطراً من الحقيقة. لكن في الطريقة التي يتحدث بها نوع من العداء، والشرّ! ما هو السبب؟ هل أنا بدون يدين أو غبيّ إلى تلك الدرجة، بحيث لا أستطيع الوصول إلى ذلك المستوى، الذي وصل إليه أباكير؟ أو أن علمي هو الذي يعيقني؟ لم أفهم ذلك مطلقاً. مع ذلك أجبت سوروكين بهدوء قائلاً:

ـ إنّني قدمتُ للعمل هنا، فنّي مقطورة، إنّ ذلك مهمّ بالنسبة لي. أعرف التعامل مع السروج وأحزمتها. الجميع يعرف ذلك، وأباكير يعرف أيضاً، كان بإمكاني الاستمرار بالعمل على هذا الشكل. لكنّني لا أريد أن أكون ناقلا للماء. أرفض الأمر بشكل مبدئي.

قال سوروكين:

ـ ليس لدينا عمل آخر.

استنتجت قائلاً:

ـ هذا يعني، أن عليّ ترك العمل.

رفعت كاليبا عينيها نحوي، وتنهّدت قائلة:

ـ لكنتُ أنا كميل، تركتُ لك مكاني، وجلستُ بنفسي على ناقلة الماء، لكنّك لن تقبل.

مكتبة الفكر الجديد

كان كلامها مفاجئاً. هل كان ذلك بسبب طيبتها، أم أنّها كانت تشعر دائماً بغلظة أباكير، لقد كانت كما لو أنها تشعر بالخجل بالنيابة عنه، عندما كان يصرخ، ويشتم، حيث حاولت دائماً أن تُخفّف، وتُحسّن من غلظته ـ هل الأمر كذلك أم لا! لكنّها قالت ذلك، فأجبتها متهوّراً ودون تفكير:

ـ بل أقبل.

ساد الصمت تماماً في اليورتا. لم يسمع سوى صوت فرقعة الموقد، مع صفير هادئ. نظر الجميع في وجهي مشككين. لعلّهم انتظروا أن أتراجع، وأرفض؟ الذي حصل، هو أنني انسلّلتُ بنفسي إلى براثن الإنسان الذي يكرهني ولا يتمنّى لي أي خير. ومع ذلك فقد صمتت. قولاً ـ وفعلاً.

نظر سوروكين في وجهي مرّة أخرى مستطلعاً.

سأل باختصار:

ـ أنت جادّ؟

ـ نعم.

بصق أباكير في الموقد وقال:

ـ سيّان بالنسبة لي! لكنّي أُحذّر: غلطة بسيطة ـ سأصفعك على رقبتك! ـ والتمعت عيناه ببرودة في العتمة بابتسامة وتحدّي.

لم يحتمل إيسيركيب، الذي كان صامتاً طوال الوقت، وقال:

مكتبة الفكر الجديد

ـ ماذا تعني بغلطة بسيطة؟ هل تهدّد مقدماً؟ يا للحكمة! سينجح، لقد عمل على محراثي بنجاح.

ـ لم يسألك أحد، لا تتدخل في شؤون الآخرين. سنرى نحن. أنا المسؤول عن الجرّار، وعن العمل....

قاطع سوروكين أباكير منزعجاً من جديد:

ـ توقف! ثم قال لي:

ـ ابدأ العمل منذ الصباح، ـ ثم نهض ومشى نحو المخرج، وأردف:

ـ أمّا الآن فقد حان وقت الراحة...

لم أنم تقريباً هذه الليلة. كنت أتساءل، كيف ستسير الأمور مع أباكير؟ حتى الآن لم أحتك به سوى من وقت لآخر، واعتباراً من يوم غد، سأحتك به دائماً، نهاراً وليلاً، وسأكون تحت طاعته. لم تخفني واجبات عامل المقطورة إلى تلك الدرجة، بالرغم من أنها تتطلّب التحمّل والصبر. طبعاً، يجب أن أتكيّف مع الأمر، وأن أرفع وأنزل شفرات المحراث بدقة وفي المكان المناسب، كي لا أُؤخّر حركة الجرار ولو لدقيقة واحدة. كما يجب عليّ، بالإضافة إلى ذلك، أن أساعد سائق الجرار في كلّ شيء ـ في الاعتناء بالآلة وإصلاحها. جرّب أن تعطي أباكير، مفتاحاً غير الذي يطلبه، أو برغيّاً أو عزقةً غير مناسبين، أو أي شيء من هذا القبيل....

مكتبة الفكر الجديد

وتبيّن لي أن ألداي لم تنم كذلك. اقتربت منّي في العتمة، وجلست بالقرب منّي، مررت كفها على رأسي وقالت:

ـ فكّر جيداً، يا كميل. لا يمكنك تحمّل ملازمته. أنت طيّب، وغير مسيء. سيستولي عليك، ولا يمكنك إرضاءه...

ـ أنا لا أنوي إرضاءه، أمّا الاستيلاء عليّ، فلن أعوّده على ذلك.

ـ أُنظر، أنت أدرى.

قالت ذلك بهدوء، ثم عادت إلى مكانها.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

٣

بدأت معركتي مع أباكير منذ اليوم الأوّل.

رمى جملته الوحيدة، قبيل بداية الحراثة:

ـ إذا غفوت، ستتدحرج تحت السكاكين، ـ لن أكون مسؤولاً عنك.

و لكنني، بالتأكيد، لم أكن في حالٍ تسمح بالنوم. كنت متوتراً للغاية، استعداداً للعمل بدقّة ومن دون عيوب. لكن لو فكرتُ، بأنني سأسقط عن طريق الخطأ تحت السكاكين، لكان من الأفضل لي أن أرفض هذا العمل مباشرة.

نعم، كانت السكك الفولاذية، مثبتة تحت رجليَّ الممدّودتين بوصلات، تسري في الأرض الواحدة تلو الأخرى، مقلّبة العشب المدخّن المرّ للطبقات البكر. ناثرة الشيح المغروس في الأرض. يسير الجرار، دون توقف، يهدر بتوتر ويصرُّ بالجنازير.

لم يلتفتْ أباكير إلى الخلف أبداً، ولم يسألني عن حالي. كنت أشاهد فقط رقبته العنيدة المشدودة. وكأن الوضع يقول لي، بأن أباكير سيختبرني إلى ذلك الحين، الذي أرفض فيه العمل بنفسي أو

مكتبة الفكر الجديد

حتى يقتنع، بأنّني سأصمد. ولعلّه كان يقود الجرار دون استراحة عن عمد، كي يتعبني، ويجبرني على التراجع. ولكن هيهات هيهات، إنّ أباكير يعرف جيداً بأن الجلوس على كرسيّ معدنيّ، لا يرتكز على أيةِ مخمّدات، مختنقاً من الغبار والغازات المحترقة التي يقذفها المحرك، ليس متعة. وأنا لم أفكر في الاستسلام. أعصابٌ متوترةٌ إلى أقصى حد، عينان، سمعٌ، ويدان متمسّكتان بمقود المحراث ـ هكذا كنت أتصوّر العمل المطلوب. لم أتفوّه بكلمة طوال هذا الوقت، وبخاصّة عندما كان يقود الآلة في الأماكن الصخرية بعناد شرير، وكأنّ المحراث عندها يقتلع الأثلام اقتلاعاً، والسكاكين تصرّ في الصوّان، ناثرة شرارات ورائحة حريق، وكنت أنا أهتزُّ وأترنّح على الكرسيّ. شعرت في المساء، عندما أوقف أباكير الجرار، بتعب مخيف لم أجرّبهُ من قبل. امتلأت عيناي، وفمي، وأُذناي وأنفي، كلّها بالغبار والرمل. رغبتّ في الاستلقاء على الأرض والاستسلام إلى النوم مباشرة. لكنّني لم أتحرّك من مكاني، وانتظرتُ أوامر أباكير.

التفت نحوي من غرفة القيادة، وصاح قائلاً:

ـ ارفع المحراث!

ثم أخرج الجرار من الأرض المحروثة، وأوقف المحرك، ثم اقترب من المحراث. انحنى نحو السكك، تلمّس حدّة السكاكين، وقال لي:

مكتبة الفكر الجديد

ـ يجب استبدالها، لقد تآكلت. ينبغي أن تكون جاهزة في الصباح!.

أجبته قائلاً:

ـ لا بأس، اترك السكاكين الاحتياطيّة وأبعد الجرار عن المحراث.

نفّذ طلبي ومشى صامتاً إلى معسكر الحقل. تابعته بنظري وأدركت، أنني لست غاضبا منه وحسب، بل أحسده. يمشي متبختراً، وكأنّه لم يتعب إطلاقاً. طبعاً، لقد استنفدَ قواي كلها، لكنّه، هو نفسه أيضاً لم يسترح ولا لدقيقة واحدة. إنّه متمكّن من العمل، هذا النذل!. تنفستُ بعمق وأخذت بجمع أدوات التعليق، ووضعها قرب المحراث. كان عليّ أن أوقد النار، كي يكون هناك متسع من الوقت لتبديل السكاكين خلال الليل. ذهبت بعد أن جمعت كومة من الحطب، لتناول طعام العشاء.

نظرت إليّ ألداي العزيزة واللطيفة، نظرة حزن، بينما كنت أتناول بسرعة وصمت طعام البيشبارماك[1] الذي تركتهُ لي كشكل من أشكال اهتمامها بي. لم يكن لديّ وقت للجلوس. طلبت منها مصباحاً، نحتفظ به لاستخدامه عند اللزوم.

سألتني وهي تقدّم المصباح:

---

(١) وجبة قيرغيزية تتكون من اللحمة والمعكرونة، تطهى بطريقة فنيّة خاصّة تميزها من غيرها (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

ـ لماذا تريده؟

ـ يجب استبدال السكك.

صاحت ألداي، مخاطبة أباكير:

ـ ما هذا الذي يحصل، وما الفائدة من ذلك! لن أسمح! لن أدعك تهزأ بهذا الفتى!

أجاب أباكير بقرف، وهو يستعد للنوم:

ـ ما علاقتي أنا، لا تسمحي له.

لكز سادابيك زوجته قائلاً:

ـ لا تتدخلي! إنّ كميل قادر على التصرّف.

نهضت كاليبا، واستعدت للذهاب معي قائلة:

ـ لا تقلق، سنساعدك يا كميل. هيّا، إيسيركيب!

قلت لهم:

ـ لا أحتاجكم، لا داعي للقلق، أستطيع بنفسي استبدالها.

بهذه الكلمات خرجت من اليورتا، مضيئاً أمامي بالمصباح.

حلّ الليل من حولي، أبكم ولا حدود له. عرّجت لدقيقة على النبع ـ لأشرب الماء. بصعوبة غرغرت حنجرتي، كان النبع كما لو أنه يدرس الهدوء والبرودة. أضاء لامعاً من العمق الشارد والمظلم. فعلاً، إنّه يشبه عين الجمل. تذكرت الفتاة ـ مربّية الحملان. لم

مكتبة الفكر الجديد

يسمح لي الوقت حينها، أن أعرف اسمها. أين هي الآن، تلك الفتاة اللطيفة ذات الخال؟

بعد أن وصلت إلى المحراث، لم أضيّع الوقت وبدأت العمل. رفعت السكك، بقدر ما يسمح تصميمها، ثم أشعلت الموقد. واحتجت طبعاً المصباح. حللتُ البراغي، وأدخلتها في العزقات ووضعتها في القبعة، كي لا أفقدها. انبطحت طوال الليل تحت المحراث. شدُّ البراغي كان صعباً بالطبع، والأهم أن اليد لم تكن تطالها بسهولة، فقد توضعت في فتحات غير مريحة، يصعب الوصول إليها. همد الموقد في هذه الأثناء. زحفت من تحت المحراث، وأوقدته مرّة أخرى، وأنا مستلقٍ على الأرض. لا أعرف، كم كانت الساعة، لكنني لم أهدأ، حتى تمكنت من استبدال الشفرات. سحبت نفسي في الظلمة فيما بعد، نحو الجرار وارتميت في غرفة القيادة كي أنام. تألّمت يداي المجرّحتان أثناء النوم، واحترقتا.

أيقظتني كاليبا في الصباح الباكر. لقد قدمت مع ناقلة الماء.

نادتني قائلة:

ـ لقد ملأتُ المبرّد. تعال واغتسل، كميل، سأسكب لك الماء.

لم تسألني عن شيء، وكنت لها شاكراً على ذلك. فليس من الأمر المريح أن يشفق الناس عليك. أحضرت لي من العربة عندما

مكتبة الفكر الجديد

اغتسلت، زوّادةً تحتوي على طعام وزجاجة جارما[1]. كم هو لذيذ شرب «الكفاس» الحامض المصنوع من الحبوب المحمّصة! إنّه طبعاً اهتمام خاص بي من قبل ألداي.

وصل اباكير. لم يقل شيئاً. نعم لم تكن هناك حاجة للشجار. قرّب الجرار من المحراث بصمت، ربطته إلى الجرار بحلق، وتحرّكنا في الأرض من جديد. جلست هذا اليوم على المحراث باقتدار. كانت ثقتي بنفسي عالية. سأصمد إلى النهاية! فقد استطعت تحمّل التجربة الأولى.

كلّ شيء كان على المنوال نفسه، دون استراحة، يسير الجرار محدثاً هديراً شديداً وقعقعة. وأنا أجلس في الوضعية نفسها، متمسّكاً بالمقود.

منتصف النهار أطفأ أباكير المحرّك فجأة.

قال لي:

ـ انزل، استراحة.

جلسنا على الأرض في ظل الجرار صامتين. أشعل أباكير سيجارة، وعضّ فلترها بانفعال. ثم خلع بدلة العمل والقميص وانبطح على ثيابه لأخذ حمّام شمسي. كان ظهره واسعاً، مفتول

(١) تحتوي على شراب روسيّ اسمه «كفاس» مصنوع من نقيع الحبوب المحمّصة وأحياناً من نقيع الخبز الأسود. يقدّم في فصل الصيف (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

العضلات، ولامعاً. أردتُ أنا أيضاً الاستمتاع بالشمس. سحبتُ قميصي، وأردتُ أن أفرشه وأستلقي عليه، لكن أباكير رفع وجهه المتجهم المسترخي نحوي قائلاً:

ـ حُكّ ظهري! ـ أمرني وكأنّه واثق، من أنني سأرتمي لتنفيذ نزوته، وحنى رأسه فوق يديه.

بقيتُ صامتاً.

قال هازاً كتفيه بغضب، دون أن يرفع رأسه.

ـ هل تسمع؟

ـ لا أريد!

ارتفع فجأة على يديه وصاح بي:

ـ و أنا أقول أنّك ستفعل! هيا، هل سأنتظر طويلا؟

ابتعدت عنه قليلاً، وأنا أقول:

ـ أنت دائماً تخفي نفسك في داخلك: أنا عامل! أطعم الجميع... نعم أنت عامل، فقط لأنك تعمل، أمّا في داخلك فلا تمت للعمال بصلةٍ. إنك تحمل نفسيّة باي[1].

نقرني على أنفي فجأة، وقال:

---

(١) باي في آسيا الوسطى هو المَلاك الغني قبل الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧. وعندما كان يقال لأحدهم أنت باي أو برجوازي أو إقطاعي في دول الاتحاد السوفييتي السابق، كان الأمر بمثابة الشتيمة. (المترجمان).

مكتبة الفكر الجديد

ـ حتى لو كنتُ كذلك! فلا تحشر نفسك في شؤوني!

قفزت من مكاني واندفعت نحوه بقبضتيَّ. وكما لو أنّه كان ينتظر هذه اللحظة. جمّع كلّ غضبه وحقده، الذي تراكم في الأيام الأخيرة في ضربة مخيفة، جعلتني أتدحرج على الأرض. نهضت بصعوبة على ركبتي، وكأنني لست أنا، انقضّيت على أباكير، بحماس أعمى. كانت كل ضربة منه تؤلمني حتى أخمص قدمي.

صاح وهو يوجّه لي لكمات حديدية:

ـ سأُريك، ما هي قبضتي! سأريك نفسيّتي!.

لكن كنت أنهض من جديد ومن جديد بصمت أندفعُ محتداً نحوه. كنت أوجه الضربات له دائماً إلى وجهه، وإلى سحنته الوحشيّة، أمّا هو، فكان يوجّه الضربات بدقة محسوبة إلى بطني، وإلى أضلاعي، وإلى صدري.

وقفت من جديد وتوجهتُ نحوه ببطء. وضع يده على كتفي ودفعني بقبضته، وهو يصيحُ كجزارٍ موجهاً ضربة إلى رقبتي. سقطت على الأرض ووجهي للأسفل، عضضتُ على شفتي، كي لا تصدر منّي أنّة واحدة.

قال وهو يتنفّس بصعوبة ويبصق الدم من شفتيه المبضّعتين:

ـ تتمدد على الأرض، أيّها الأكاديمي! هيّا، شمشم، وقل ما هي الرائحة التي تنبعث من الأرض، هذه ليست محاضرة تقرؤها عن الأصنام الحجرية.

مكتبة الفكر الجديد

اتجه نحو ثيابه، المعروكة تحت أرجلنا، نكّتها وأخذ يلبسها دون استعجال مزهوّاً بإحساس تأديته الواجب. لكنّه وعلى الرغم من كلّ شيء لم يشك، بأنّ من ربح المعركة هو أنا. نعم، لقد بقيت متمسكاً بموقفي، حتى ولو كنت مرميّاً على الأرض. لقد أصبح واضحاً بالنسبة لي، بأن الصراع من أجل الحقيقة، يمكن أن يكون بالقبضات. وأدركتُ بأنّه يمكن ويجب أن ترد الضربات، لمن يوجهها لك. بالنسبة لي كان ذلك انتصاراً...

بينما كان أباكير يرتدي ثيابه، ويحشر نفسه في بزة العمل، ارتحتُ وعدت إلى نفسي. وعندما أقلع المحرّك، نهضت، وارتديت ثيابي بسرعة واحتللت مكاني على المحراث.

دوّى صوت المحرك وانطلق بمحاذاة الأرض المفلوحة. المشهد ما زال هو نفسه، رقبة مشدودة وجامدة تتحرك في نافذة غرفة القيادة، وأنا ما زلت عامل المقطورة نفسه، المتمسّك بمقود المحراث.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

٤

حصلت في حياتنا تغيّرات غير قليلة. لقد أحضروا لنا في الشاحنات، عربة بحصانين، من أجل نقل البذور إلى الأرض المحروثة. وحضر إنسان آخر ـ حوذي. وأصبحت مسألة نقل الماء أسهل. حيث فرزوا جرّار سادابيك وإيسيركيب للزراعة، وتابعنا أنا وأباكير الحراثة.

هناك خبر هام أيضاً.

منذ عدة أيام، وبينما كنّا راكبين في العربة متجهين إلى الأرض بعد الغداء، شاهدت تلك الفتاة ـ مساعدة الراعي نفسها عند النبع. قفزت من العربة. أوقف الحوذي الحصانين، لكنّ أباكير لم يسمح له بالتوقف.

وأمره منزعجاً:

ـ تابع، لا تتوقف.

أسرعتُ نحو الفتاة، وتوجهتْ هي نحوي، تاركة أغنامها. لكنني لم أتمكن من الوصول إليها، كان عليّ اللحاق بالعربة، كي أصل في الوقت المناسب مع بداية العمل. توقفت.

مكتبة الفكر الجديد

ناديتها:

ـ مرحبا!

أجابتني بعد أن توقفت أيضا:

ـ مرحبا!

لقد سررّت جدا، كوني رأيتها، لكن لم أكن أعرف أبداً، ماذا أقول.

ـ لماذا لا أراك مع ناقلة الماء، أين أنت الآن؟

صحتُ مجيبا باعتزاز:

ـ أنا الآن أعمل على الجرار! نحن هنااااك في ذلك الحقل! اعذريني، أنا مستعجل جدا!

لوّحت لي بيدها قائلة:

ـ أسرع، أسرع!

انطلقت بسرعة كي أتمكن من اللحاق بالعربة. التفتُ مرة واحدة إلى الخلف. الفتاة ما زالت تقف في المكان نفسه تتابعني بنظرها. العربة لم تتوقف. لكن الركض بالنسبة لي كان مريحاً وسهلاً. كنت سعيداً، لأنها لوّحت لي بيدها، لذلك شعرت فعلاً، بأنني أعدو في موجة السهب الربيعية...

ظهرت في اليوم التالي بالقرب من حقلنا. حيث كانت تقف على رابية ليست بعيدة، تعتني بالأغنام الأمهات وحملانها. رغبتُ كثيراً

مكتبة الفكر الجديد

بالاقتراب منها ولو لدقيقة، لكن هل يسمح لي أباكير، وهل هو قادر على مثل هذا التصرف؟ لم أطلب منه أن يسمح لي بذلك.

عندما ظهرت في المرّة التالية على الهضبة، كنّا وأباكير بجانب الجرار الهادر، حيث كان يتفحّص شيئاً ـ ما في المحرّك.

سأل أباكير:

ـ ما بها أخذت تتردد إلى هنا؟

ـ لا أعلم.

ـ ما اسمها؟

ـ لا أعرف أيضاً.

بصق ساخراً وألقى نظرة نحوها قائلاً:

ـ آه منك، أيّها الأكاديمي! إنّها فتاة مُثيرة!

نظرت إليه بغضب.

ـ اذهب واجلس مكانك! ـ قال ذلك، ثم تابعنا عملنا.

اقتادت الفتاة في هذه الأثناء الأغنام من الهضبة إلى مكان مفتوح، يبعد عنّا حوالي مئة خطوة. تساءلت في نفسي، لو أهرع إليها، وأجلس جانبها، ونتحدّث، أو أتملّى بكل بساطة ذلك الخال الجميل....

توقف الجرار فجأة. أخرج أباكير رأسه من غرفة القيادة قائلاً:

ـ ثبّتْ مقبض الرافعة! وتعال إلى هنا!

مكتبة الفكر الجديد

نزلت عن المحراث، وتوجهت إلى أباكير محتاراً. هو لم يسمح لي أن أدخل غرفة القيادة أثناء العمل.

ترك مكانه لي قائلاً:

ـ اجلس. وتعلّم القيادة!

كنت دهشاً. لم أتوقع ذلك منه أبداً. ما الذي حصل لأباكير، هل يعقل أن يكون قد تقبّلني أخيراً؟ مع ذلك لم أفكر طويلاً واستعددتُ لفعل كل شيء، يأمرني به.

ـ اضغطْ على الدوّاسة. ركّبْ المقبض. نعم هكذا. والآن ارفعْ الدواسة بحذر. امسكْ مقابض الرافعات...

هدر الجرار، تحرّك من مكانه، وسرنا على امتداد الحقل. تملّكتني النشوة من الفرح. لم أفكر بشيء، لم يكن لي شأن بأي شيء في هذا العالم. كنت مهووساً برغبة واحدة، إتقان العمل على الجرار وفهم آلية عمله. كنت أحلم بذلك منذ زمن! وها هو الجرار العظيم، يستجيب ليديَّ، تحرّك إلى الأمام، هادراً يتخذ في الأرض مسارات. وتبيّن أنني أنا نفسي، تحوّلت إلى آليّة، مركّزة فقط، على تنفيذ الإجراءات المطلوبة.

انعطفت في نهاية الحقل انعطافة لا بأس بها. صحيح، بقيت عيوب كبيرة على المنعطف لعدم وجود عامل مقطورة. لكن ذلك ليس كارثة: الأراضي شاسعة في أنارخاي، مقابل ذلك أتعلم أنا قيادة الجرار!

مكتبة الفكر الجديد

وهكذا تابعنا عدداً من الغدوات والرواح. قلبي لم يعد يرتجف كما كان في البداية، لقد شعرت بثقة أكبر.

صاح أباكير في أذني قائلاً:

ـ تمسّك بسلاحك، أيّها الأكاديمي، سأتركك قليلاً. وإذا ما حصل شيء، أوقف المحرّك!.

قفز من الجرار أثناء السير، هزّ نفسه، وتهيأ، ثم توجّه نحو الفتاة ـ مساعدة الراعي. أصبحت الآن قريبة جداً. أدركت هنا، بما كان يفكر. لم يكن الأمر يخلو من مصلحة ذاتية، في دعوته لي إلى قمرة القيادة.

وقف أباكير بالقرب من الفتاة وتحدث معها دون استعجال. طبعاً، ولم لا!.. العمل جار على ما يرام، والجرار قريب، وفي حال حصول أي شيء يمكن دائماً الوصول بسرعة.

لم يعجبني تصرّف أباكير. لكنّي كنت في هذا الوقت سعيداً ـ كوني أقود الآلة بنفسي! كنت أرغب أن ألوّح لها بيدي من قمرة القيادة، وأناديها بكلمات طيّبة. أخ، لو أن أباكير غير موجود هنا! ماذا يقول لها هناك وبماذا تجيبه؟ ليتها تكون حذرةً معه، وقاسية بما يكفي...

ساعة ونصف لم أنزل من الجرار، حتى اقتادت الفتاة الأغنام عائدة. لم ألتقط من وجه أباكير أية تعابير، تتحدثُ عن نجاحه. لا،

مكتبة الفكر الجديد

لم يعبّر وجهه سوى عن الاعتداد المتغطرس ـ الصريح المعتاد بالنفس.

طبطب على كتفي، وقال بسخرية ملتوية:

ـ هيا، أيها الأكاديمي، عد إلى مكانك!

لم أقل شيئاً وقفزت من الجرار.

قدمت فتاتنا في اليوم التالي أيضاً. وضعني أباكير في غرفة القيادة مرة أخرى، وتوجّه هو نحوها. كان الأفضل أن لا تأتي. لم أستطع ترك الجرار، لكن لم أستطع كذلك أن أبقى لا مباليا.

فكرّت، وأنا أرمي نحوهما نظرات قلقة «كيف لي أن أحذرها؟ ـ لا يجب أن تلتقي به. لكن كيف يمكن منع الناس من التحدث بعضهم إلى بعض؟ الإنسان نفسه يجب أن يعرف، مع من يتعامل...».

عادت الفتاة هذه المرّة بسرعة، لقد سررّتُ جداًلذلك. كانت تحثُّ الأغنام بسرعة أكثر فأكثر، هربت في السهب، دون أن تلتفت خلفها. «أرسلت لها ذهنياً اعتذاراتي ـ اعذريني يا عزيزتي، جيد بأنّك عدت بهذه السرعة. سنلتقي مرّة أخرى. لن أبقى في المرّة القادمة على الجرار، سأسرع إليك. أمّا الآن اذهبي، لا تتوقفي، أيتها الفتاة اللطيفة ذات الخال... تعرفين أنّي لا أعرف اسمك حتى...».

لقد عوّلتُ عبثاً على اللقاء القادم. لم تعد تظهر الفتاة من حينها.

مكتبة الفكر الجديد

انتظرناها سويّة ثلاثة أيام متتالية، دون أن نتحدّث عن ذلك علناً. كان أباكير أكثر غضباً وغلظة من المعتاد. أخذ ينظر إليّ نظرة كرّه واضحة. وأنا الآن لم أعدْ أخفي احتقاري له. أدركتُ أنّه أهان الفتاة بطريقة ـ ما، وشعرتُ بذنبي أمامها، لأنني لم أتمكن من الدفاع عنها ضد شيء ما مظلم، لا ينذر بالخير. لقد أعطيتُ نفسي وعداً: البحث عنها عند أوّل إمكانية، والتحدث من القلب، حول كل شيء. لقد أصبحتُ أحلمُ بهذا اللقاء، أتمنّاه وآمل به.

تعرضنا في الحقل هذه الأيام للمطر، لقد حلّ مفاجئاً غزيراً. كان هطول برّي عاصف مع البرد. الريح تصفر، وغطت الأرض في لحظة برك واسعة يتصاعد منها البخار. لكن أباكير لم يوقف الجرار. بل على العكس، تركه يسرع أكثر ولم يلتفت إلي على الإطلاق، كنت أجلس تحت المطر الغزير والبَرد.

لم تعد تتناثر خلف المحراث الطبقات المنتفخة بالمياه. لقد تجمّعت على المحراث، وتسلّقت على الإطارات، وعلى رجلي. لم يكن أباكير ليتوقف، لو لم تغطِّ المسارات سيول لزجة.

أطفأ المحرّك حينها وأشعل سيجارة، وهو يتمدد داخل غرفة القيادة، معتقداً على ما يبدو، أنّني سأرجوه الصعود إليه للاحتماء تحت السقف. لكن الآن، الأمر سيّان بالنسبة لي. فقد تبللت حتى أظافري. لم أنزل عن المحراث وجلستُ تحت المطر، أغسل الطين عنّ جسدي.

مكتبة الفكر الجديد

الشيء الوحيد، الذي حاولت حفظه من الماء، هو الدفتر الذي يحتوي بعض الملاحظات ومقتطفات من الكتب المقروءة. لقد وضعت الدفتر داخل ساق الجزمة.

توقف المطر فجأة، وكأن يداً حجبتهُ. وانقشعت السماء على الفور، مشرقة لا قعر لها، شفافة فيروزية. وكأنّها كانت امتداداً لجمال ونقاء، السهب الواسع المغسول بمياه المطر السخيّة. اتسعت الفضاءات الأنارخية التي لا حدود لها، وأصبحت أكثر حريّة. وتوضّع فوق أنارخاي ملءَ الأفق كلّه قوس قزح. امتد من طرف الكون إلى آخره وتجمد في السماء، مستوعباً كل ألوان العالم الرقيقة. حدّقت حولي بإعجاب. السماء الخفيفة التي لا وزن لها، زرقاء، زرقاء بلا حدود، قوس قزح المرتعش المتعدد الألوان وسهب الشيح المتلاشي! جفّت الأرض بسرعة، وحلّق نسرٌ فوقها عالياً فارداً جناحيه بثبات واقتدار. وتراءى لي أنه: لا النسر نفسه ولا أجنحته، بل تنفس الأرض القويّ، وتياراتُه الدافئة، هو من رفع النسر عالياً إلى تلك الذروة.

أنا أيضاً ارتفعت معنوياتي، وشعرتُ من جديد بالقوة في داخلي، ومن جديد عادت الحياة إلى أحلامي عن دولة أنارخاي. نعم، إنّي الآن أقف بثبات على هذه الأرض، ولم يعد باستطاعة أحد أن يبدّد أحلامي، ويعيق ثقتي في مستقبل سهوب أنارخاي الباهر.

مكتبة الفكر الجديد

أنا لست شاعراً، لكن حصل أن نشروا لي شعراً أكثر من مرّة في جريدة الحائط المدرسية. وها أنا الآن أسحب دفتري من داخل ساق الجزمة، وأكتب لأوّل مرّة الكلمات التي وردت إلى ذهني على الورق، مباشرة وعلى عجل:

تستلقي خلف مرتفعات كوردابسك

منطقةٌ لم يطأها أحد لقرون

تسفّعها عاصفةٌ ثلجيةٌ غزيرة،

تجففها حرارةُ الشمسِ العاليةُ ـ

إنها أنارخاي السهبيّة البعيدة.

لكن قدرها، وأنا أعرف ذلك ـ

وهو يومٌ قادمٌ في الدرب وليس ببعيد ـ

أن تصبحَ فضاءاتُ سهوب الشيح!

دولة أنارخاي الغنية.

لم يعنني كثيراً أن ما كتبتُهُ هو سطور مائلة، وغير ناجحة. لكن ما أزعجني هو شيء آخر: إن تلك السطور لم تعبّر سوى عن واحد بالمئة، مما تجمّع وجال في ذهني. أرهقت نفسي بالتفكير، كيف أفعل، وكيف يمكن إيجاد تلك الكلمات الوحيدة

مكتبة الفكر الجديد

والصحيحة، كي أترجم أحلامي، كما أشعرُ بها. لكن في هذه اللحظة أحد ما اختطف الدفتر من بين يدي. التفتُ.

ابتعدَ أباكير جانباً، وقال ساخراً بغضب:

ـ تؤلّف رسائل حب! تريد جذب الفتاة بالشعر؟..

قفزت نحوه منزعجاً وقلت له:

ـ أعطني الدفتر! ليس جيداً أن تقرأ شيئاً لا يخصّك!

ـ لا تعلمّني: ما هو الجيد وما هو السيئ! لدي جيدي الخاص! ابتعد عنّي!

ركضت نحو الجرار وأمسكت مفك البراغي قائلاً:

ـ آخ، هكذا إذا!

هددني أباكير قائلاً:

ـ هيّا، هيّا! خذ، يا للسخافة.

أعاد إلي الدفتر، وبعد دقيقة، انفجر بالضحك فجأة، ودوّت قهقهته في السهب:

ـ دولة أنارخاي! ها ـ ها ـ ها! يا لك من مجنون أنت أيّها الأكاديمي! أمثالك فقط، يجب إحضارهم إلى هنا، كي يعرفوا كل شيء على حقيقته!... اخترع، دولة أنارخاي! ها ـ ها ـ ها! سوف ترى قريباً، ما هي هذه الدولة! ابق هنا فصل الشتاء، وستغنّي لحنا آخر...

مكتبة الفكر الجديد

ـ أنا لن أسألك، هل أبقى أم لا! الأفضل أن تفكّر في نفسك!

اقترب أباكير منّي قائلاً بسخرية قاتمة:

ـ بماذا عليّ أن أفكّر؟ أفكاري معي. أنال ما أريده في كل مكان.

ابتعد عنّي، لكن، تذكر أمراً ما، توقف، اقترب منّي حتى كاد يلتصق بي وقال بصوت أبح:

ـ أمّا أنت، أيّها الأكاديمي، فانزع من رأسك الأفكار عنها، لا تأمل... أشوّهك!

ـ سنرى ذلك لاحقاً!

ـ أقول ذلك كي لا تجرؤ أن تفكّر!

فجأة شعرت حتى بالشفقة على هذا الإنسان الأرعن، المترع بالغضب والكره، نحو كل من يحيا من حوله حياة تختلف عن حياته. قلت له بهدوء:

ـ أنت إنسان بالغ. تقول أحياناً أشياء صحيحة. لكن من الواضح تماماً أنك تفعل ذلك بمحض المصادفة، أو على نحو أعمى. عليك أن تتذكّر، بأن لا أحد في هذا الكون قادر على منع أحد من أن يفكر، أو يتمنّى، أو يحلم. يتميز الناس من القطعان، بأنّهم قادرون على التفكير.

لا أدري، إن كانت كلماتي قد أثّرت فيه، لكنّه صمت. واقترب بتجهّم من الجرار وأدار المفتاح الكهربائي بقوّة. فدار المحرّك بسهولة، كان يجب الشروع بالعمل من جديد...

مكتبة الفكر الجديد

لن أتخلّى عن أحلامي منذ هذه الساعة. لقد أحرزتها، واكتسبت الحق فيها من جديد. لن تفارقني، إنّها تحيا معي.

مساء، عندما استعد الجميع للنوم، خرجت من اليورتا وتوجهت صوب النبع. لا أدري لماذا كان المكان يجذبني نحوه، رغبت أن أنفرد بنفسي وحيداً.

كانت السماء تضيقُ بالنجوم، فأخذت تتراكض نحو الأرض عند الأفق. لكن الكثير منها، بل يمكن القول، بأن النجوم كلها التي كانت تنتصب فوق رأسي، اجتمعت بطريقة غير معقولة في النبع، منعكسة في حوض ماءٍ صغير، والذي يبدو الآن عميقاً لا قعر له. تشع هذه النجوم وتتلألأ في الماء ـ حيث يمكن غرفها ورميها على الضفّة إلى جانب صفحة النبع أضواءً متناثرةً. وهناك، حيث تجري الساقية، كانت تسبح فيها وتتناثر قطعاً في القعر الحجري. لكن هناك، حيث المياه راكدة بردت في شرود هادئ، وكانت مشعّة مثل ما هي في السماء، وفكّرت أنا، بأنّ نبع السهب يذكّر بشيء ـ ما مرّة أخرى، بحالة الروح الإنسانية، عندما تكون مضيئة ومليئة بالأحلام، وعندما تصبح عميقة بهذا الشكل، تستوعب في داخلها العالم الخارجي المحيط كله.

جلست عند النبع، نظرت، واستمعت، وأحسسّت بكلّ كياني، استوعبت في نفسي السهب الليلي المتلاشي وأعدتُ رسمه في أحلامي على طريقتي الخاصّة. لكن لمن سأروي هذه الأحلام، مع

مكتبة الفكر الجديد

من أتقاسمها؟ من الصعب أن أوضح لماذا، لكنّها هي، من غير تلك الفتاة ذات الخال، التي لم أعرف اسمها، يتهيأُ لي أنّها هي بالذات ذلك الإنسان المناسب. لو فعلتُ لكانت فهمتني، وقاسمتني قلقي. ربما لأننا التقينا هنا لأول مرّة، عند هذا النبع، وسمّيناه عين الجمل؟

أين هي الآن، وهل تعرف، أنّني أفكرُ بها؟ قريباً سننتهي من الحرث، وحينها سأجدها، وأحضرها إلى هنا، إلى النبع، وأُخبرها عن دولة أنارخاي. ليس بالشعر، لا، ـ ستضحك أيضا! ـ سأحدثها ببساطة، بكلمات عادية، هكذا، كما أتصوّر الحياة المستقبلية في سهب أنارخاي.

عندما هممتُ بالانصراف، رفعتُ بصري مرّة أخرى على السماء المرصّعة بالنجوم. فرحت عيناي بكل ما استطاعت رؤيته. لكن، وكما هو الأمر دائماً، وقفت على التل المقابلة كتلة لا شكل لها من السواد الغامض، لامرأة حجرية. تخيّلتُ، كيف تقف الآن، تحدّق بعيداً بعينها الوحيدة، مرسلةً نظرةً غيبّة هامدة، دون أن تبالي بأي شيءٍ على الإطلاق.

طلع القمر، ولاحظت ظلّين حذرين اثنين، يتحركان نحو الحقل المحروث من الأرض. هذان الظلان كانا غزالين ـ غزالان سهبيّان. إلى أين هما ذاهبان؟

أعتقد، أنهما يطلبان شرب الماء. وصل الغزالان إلى حدّ الحقل

مكتبة الفكر الجديد

وتوقفا وكأنهما مغروسين، لا يتجرّآن على الولوج إلى الأرض المقلوبة غير المعتادة والتي تمنح النفط والحديد. وقفا طويلاً على هذه الحال، دون أن يتحرّكا مخضّبين قليلاً بضوء القمر الفضي. كان الغزال ذا قرنين غصنيّين وبدت الغزالةُ بظهرٍ أكثر انخفاضاً، وذات عينين واسعتين تلمعان في الظلام. التصقت بالغزال، أما هو فقد رفع رأسه الخفيف بحذر. استمرّا بالوقوف على هذه الصورة، محتضنين أحدهما الآخر بذهول. كان شكلُهما يعبّر عن سؤال وخوف. «ما الذي حصل للسهب؟ أين اختفى الممّر الترابي القديم؟ ما هي القوّة التي قلبت الأرض بهذه الطريقة؟».

لم يتجرأ الغزالان على متابعة المسير في الحقل. استدارا وعادا بصمت. حاملين على ظهريهما المتماسكين لون الفضة القمرية الحزين.

جلستُ قليلاً، كي يتمكن الغزالان من الابتعاد بهدوء. ثم عدت إلى اليورتا، بحثت عن مكاني في الظلمة وتمددتُ طويلاً وعيناي مفتوحتان.

وسمعت هنا همساً. كان أباكير وكاليبا مضطجعين سوّية. ولعل الأمر كان يحدث من قبل، لكنّني لم أكن أعرف ذلك. كاليبا كانت تبكي، وتتلفظُ بكلمات ما، لم أتمكن من فهمها.

تمتم أباكير ناعساً:

مكتبة الفكر الجديد

ـ هيّا توقفي، يكفي، سنسافر إلى المدينة وهناك نحلّ المسألة. ستمكثين يومين اثنين... لماذا تقتلين نفسك عبثا؟

أجابت كاليبا بتحسّر:

ـ ليس من أجل ذلك أقتل نفسي. بل لأنني أكره نفسي، وأحتقرها... لماذا أحببت إنساناً مثلك؟ ما الذي وجدته فيك، لا أدري... هل فعلتَ ولو أمراً واحداً جيداً للناس؟ لا أبداً، تعلّقتُ بك، كالكلب...

ـ لن تندمي على ذلك. ننهي العمل ـ وأصطحبك.

ـ لا، بل سأندم. أعرف، سأشعر بالذنب طوال حياتي. ومع ذلك سأذهب. لا أريد البقاء وحدي...

ـ هدّئي من روعك! اقتربي أكثر. حسناً، لو فعلت ذلك منذ البداية، ها أنت... فقد بللت الوسادة كلّها.

رميت الغطاء على رأسي. وأردتُ أن أغفو بأسرع وقت ممكن، كي لا أسمع هذا الحديث المزعج.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

٥

تزداد الشمس حرارة يوماً بعد يوم. وكثرت زيارات سوروكين. يجب الإسراع ـ المدة المحددة تضيق، والأرض تتيبّس. نحتاج إلى حوالي خمسة أيام لإنجاز الحراثة، ويحتاج الزارعون المدة نفسها. لقد قال سوروكين، بأنّنا سنرفع وتيرة الحرث ابتداء من الخريف، وسيحضرون المزيد من الجرّارات وسيحدثون هنا محطة تقنيّة للإصلاح. كل شيء محسوب لدى سوروكين. كان يجول دون كلل في السهب، في وهاده ومستنقعاته، وهضابه. هو لم يعرفه جيداً فحسب، بل استوعبه كلّه في رأسه، مدروساً حتى آخر حبة رمل فيه. لقد حان الوقت للاستغناء عن نقل العلف بالسيارات والطائرات، كما يحصلُ غالبا في أنارخاي في فصول الشتاء القاسية. وكان سوروكين يعرف، كيف يمكن بلوغ هذا الهدف.

أصبحنا أنا وأباكير الآن نحرث حتى ساعة متأخرة من الليل. وننام في الحقل ومع الفجر نبدأ عملنا من جديد. كان العمل صعباً، إلى درجة جعلت أباكير يتركني وشأني. بدا لي، بأنّه لم يعد يلاحظني، ولم يعرني أي اهتمام. لكن الكره الخفي الغامض لي

مكتبة الفكر الجديد

كان يعيش في عينيه المتجهمتين. لم يكن هذا الوضع سيّئاً بالنسبة لي. كنت أنفذ عملي وأعيش مع أحلامي. أنتظر ذلك اليوم، عندما سأتمكن من الذهاب إلى الرعاة في الهضبة المتوضعة وراء التلال، وأبحث هناك عن الفتاة ذات الخال.

بدأنا هذه الأيام نحرثُ مساحة واسعة جديدة من الأرض. تشعر دائماً بالمتعة عندما تبدأ عملاً جديداً، حيث تكون مشغولاً بأمنياتٍ، تجلب لك الرضى في العمل. فعندما كنت في المدرسة، كنت أفضلُ الكتابة على سطر جديد، من ورقة نظيفة جديدة. أحببت العدو صباحاً فوق الثلج غير الملموس، لأكون أوّل من يترك أثراً. كنت أحب المشي في فصل الربيع في التلال السفحية بحثاً عن ورود التوليب الأولى، التي لم يرها أحد من قبل. يوجد في ذلك شي ـ ما مشوّق، وفاتن بحداثته ونضارته. الثلم الجديد هنا في أنارخاي في الحقول الوفيرة، كان بالنسبة لي السطر الأول، والثلج غير الملموس والتوليب غير المقطوف.

جلست على المحراث ونظرت بإعجاب، كيف تشقُ السكك تحتي الأثلام الأولى، مصقولةً حد اللمعان الذي لا يطاق، وتشقُ بإصرارٍ الأرض الثخينة، وتقلّب الطبقات بخفة وسهولة.

لمع فجأة تحت السكة الأخيرة شيء ـ ما، وكأنه سمكة اندفعت على موجة الطبقة المقلوبة، اشتعلتْ ناراً على مرآة السكة وسقطتْ مباشرة في الثلم. قفزت دفعة واحدة عن المحراث، واندفعتُ إلى

مكتبة الفكر الجديد

ذلك المكان وأخرجت من الأرض كسرةً معدنية ثقيلة متطاولة. كان ذلك شيئاً جميلاً، أعجبتُ به لدرجة أنني مددت يدي وصرخت قائلاً:

ـ ذهب!

التفت أباكير بسبب صراخي، أوقف الجرار وقفز عجلاً إلى الأرض وهو يقول:

ـ ما الذي وجدته؟

ـ ذهب! أنظر، أباكير، ذهب!

توجّه نحوي ببطء في البداية، ثم أسرع. عرضت عليه في راحة يدي هذه القطعة الذهبية الجميلة. أخذ اللقيا من يدي غير واثق، ومضى يتفحصها، مسحها بكمّه قائلاً:

ـ من أين للذهب أن يكون هنا؟ ـ قال ذلك بصوت مقبوض، وبدأ وجهه يشحب أثناء ذلك، وكأن خوفاً مفاجئاً قد انبعث في أعماقه ـ لا يمكن أن يكون ذهباً، ـ تمتم محاولاً بجهد أن يسخر، وأخذ ينقبُ التراب من تحت أظافره، وأعاد لي القطعة بانزعاج واضح، دون أن ينظر في عيني.

اعترضتُ منفعلاً:

ـ لـمَ لا! انظر، كم هي ثقيلة، تزن حوالي ثمانمئة غرام. لقد عاش المغول هنا في القرن الثاني عشر، وقبل أن يأتوا إلى هذا المكان كانوا قد احتلوا الصين وجلبوا معهم كميات كبيرة من

مكتبة الفكر الجديد

الذهب. بهذه الطريقة يمكن أن تصل إلى هنا! ـ قلت ذلك لأنني، كنت أرغب كثيراً، بأن تكون لقيتي ذهباً. تابعت التخيّل وأنا مفتون بهذه الرغبة، محاولاً إقناع نفسي وأباكير المذهول من المفاجأة:

ـ هل تعرف كم قرناً بقيت مطمورةً تحت الأرض؟ لو أنها معدن آخر لكانت قد تآكلت من الصدأ منذ زمن بعيد، أما هذه فقد بقيت في حالة جيّدة، لأنها ذهب خالص. هنا، في أنارخاي، كانت في زمن ـ ما مواجهات بين القبائل المتنقلة. هل تعرف، ما هي المذابح التي حصلت. لقد كانت تصنع مقابض سيوف الخانات من الذهب. وهذه القطعة هي مقبض سيف خان ذهبي. خذ امسكه ـ وجرّب، كم مريح حمله.

أخذ أباكير القطعة، مسكها، ثم وضعها في جيبه.

ـ على الرغم من أنها ليست ذهباً، لكن يجب عرضها على الناس المتخصصين، فقط من أجل التأكد! ـ وضع القطعة في جيبه ـ يمكن أن تسقط منك من على المحراث. دعها معي.

وافقت قائلاً:

ـ لا بأس.

مشى أباكير نحو الجرار، ممسّداً جيبه الثقيل.

تابعنا عملنا. فكرت كيف سأوصل لقيتي إلى معلمي ألديريايف وأقدمها له كهدية. لقد جمع الكثير من الأشياء المماثلة. وسيحدثنا هو طبعاً، بمناسبة لقيتي حديثاً ممتعاً. ثم تعبت ونسيت ذهبي. ما

مكتبة الفكر الجديد

أزعجني هي الحركة غير المنتظمة للجرار. إنّ أباكير يقود الآلة بشكل غريب: يبطئُ سيرها إلى أقصى حد، ثم ينطلق من المكان بسرعة، صامّاً آذاني بهدير المحرّك. وينبعث الدخان الأسود من فوهة كاتم الصوت، مشكلا سحابة عكرة كثيفة تنفرشُ على الأرض، وتزحف تحت المحراث والسكك.

تابعنا العمل بهذه الطريقة حتى نهاية النهار. غابت الشمس. لكنّ الظلام لم يحلّ بعد. ألتفت أباكير من غرفة القيادة أكثر من مرّة من خلف كتفيه، ملقيا عليّ نظرات ـ ما غير مفهومة. وها هو يوقف الجرار. ويشير إلي بيده قائلاً:

ـ تعال إلى هنا!

صعدت إلى غرفة القيادة. كان أباكير شاحباً، عيناه تتراكضان محتارتين. قال لي من خلال ضجيج المحرّك، وهو يمسح العرق عن جبينه:

ـ لم أجد القوة للصراخ كي تسمعني. اذهب وثبت المقود، ثم عد إلى هنا، واجلس، وقدِ الجرار قليلاً. وضعي الصحي ليس على ما يرام، أشعر بوعكة. سأتجوّل قليلاً في الهواء الطلق، ربما أشعر بالتحسّن...

أجبته:

ـ اذهب، اذهب.

بينما ركضت إلى المحراث وعدت، كان أباكير قد نزل إلى

مكتبة الفكر الجديد

الأرض. شحب لون جسمه مباشرة، لقد أصيب فعلاً بوعكة صحية، ابتعد بصمت، وتحدّب بقوّة.

«نعم، كان وضعه الصحّي صعباً. بطنه، على ما يبدو، ليست على ما يرام، واضح من الألم الذي تملّكه»، هكذا فكرت، ركّبتُ غيار السرعة، وتحرّك الجرار من مكانه.

سار الجرار بتوتر في خط مستقيم. كان تحت سلطة إرادتي مرّة أخرى. وكما في كل مرّة، ارتبكتُ، محاولاً قيادة الآلة بدقة. استدرت في نهاية الثلم وسرت في الجهة المعاكسة. الغسق كان قد انسدل على الأرض، وازدات البرودة. «يجب إشعال النور، بعد دورتين»، فكرت وأنا أنظر أمامي. انطلق أحد ـ ما مبتعداً بسرعة بمحاذاة الحدود أمامي. وعندما وصل إلى مكان مربط الخيل، ركض نحو الأسفل واختفى. رأيت ظهره فقط. ذلك الشخص كان أباكير. ماذا حصل له؟ إلى أين ركض؟ لا بدّ أنّه شاهد شيئاً ـ ما. وعندما وصلت إلى وسط الحقل، أخرجت رأسي من قمرة القيادة ووقف لدقيقة، لكن لم أشاهد أباكير. إلى أين ذهب؟ إنّه مريض. غريبٌ الأمر. أوقفت الجرار وأنزلت السرعة إلى أدنى مستوى وصحت:

ـ أباك ـ ير! أبا ـ كير!

لم يجيب. حينها أوقفت المحرّك تماماً، كي يتمكن من سماع صوتي، وصرخت في السهب:

مكتبة الفكر الجديد

ـ أبا ـ كير! أين أنت؟ أجبني!

لكنّ قمم التلال الكامدة قبيل المساء، لم تحر جواباً.

قد يكون وضعه الصحيّ سيئاً؟ تصوّرتُ، بأنّه، يتلوّى، مستلقياً على الأرض ولا يستطيع الوقوف. قفزت من الجرار وركضتُ مسرعاً نحو الأسفل. فتّشت مكان مربط الخيل. جلتُ بنظري. لا يوجد أحد. ركضت إلى تلّة عالية ومن هناك شاهدت أباكير، في السهل مغادراً. لقد كان بعيداً.

ـ أباكير! إلى أين أنت ذاهب؟ ـ ناديته صائحاً، لكنّه لم يلتفت، وبعد قليل اختفى عن العين، وكأنّ الأرض ابتلعته.

وقفتُ قليلاً ثم استدرتُ عائداً دون رغبة. بدت نقاط شاحبة في السماء، عاكسةً آخر أضواء الغسق. وناءتْ عتمةٌ متجهّمةٌ على التلال والسهول.

سرت معكراً ومضطرباً. تراءى لي فجأة هذا الهدوء الحزين المتلاشي، غريباً وغير معتادٍ. كان السهب وكأنهُ يستمع إلى وقع خطواتي، وإلى هواجسي. وفكرتُ أيضاً بأباكير. لقد سخر منّي ولم يثق بما قلتُهُ، عندما حدثته، عما حصل في هذه المناطق بالفعل. وفجأة عندما تركت لخيالي أن يتحدّث عن تلك القطعة الذهبية الشريرة، فقد عقله... لا. أمثال هؤلاء لا يفقدون عقولهم. إنّه على ما يبدو قد فكّر بذلك منذ مدة طويلة وتحدث عن ذلك. نعم لكنّه، كان فقط خائفاً من سوروكين. لقد كان يكره الجميع هنا، واختلف

مكتبة الفكر الجديد

وتشاجر مع الجميع. ماذا عن كاليبا؟ إنها أكثر من كان يرغب في قطع العلاقة به. بحق أي شيطان يحتاج لها، وهي الحامل الآن، ثمرةً لعلاقته الجنسية بها! ومع ذلك، لم يكن ليهرب قبل استلام الراتب بأسبوع. لكن ماذا يريد أكثر ـ أما استلم يوم أمس نقوداً، ليست قليلة، لم يتركها أبداً في اليورتا، كان دائماً يبقيها معه، هذا يعني أنّه عمل قليلاً بالمجان، إنّ كل النقود، نعم إضافة إلى لقيتي التي قد تكون من الذهب... قاطع أفكاري صوت كاليبا!:

ـ أباكير! كميل! أين أنتما؟

لقد أحضرت لنا الماء في غالونات من أجل العمل الليلي. لاقتني كاليبا بهلع قائلة:

ـ أين اختفيتما؟ لقد انتابني الرعب. أنتظرُ، أنتظرُ، الجرار متوقّف، وأنتما غير موجودين!

بماذا عليّ أن أجيبها؟ قلت لها الحقيقة:

ـ لقد غادر أباكير. وترك العمل.

سألت متلعثمة:

ـ لكن... لماذا... ما السبب؟

ـ لا أدري.

لم أقل لها شيئاً عن الذهب، خجلت! نيابة عن أباكير.

ـ يعني.. غادر؟ ـ ونترت الغالون من الناقلة بصمت، وأنزلته

مكتبة الفكر الجديد

بصعوبة على الأرض. ـ لماذا إذاً أنقل هذا الماء؟ ـ قالت ذلك مضطربة، دون أن تلتفت إلى أحد.

حملتُ الغالون إلى المبرّد، أمّا كاليبا فقد حنت رأسها نحو قمرة القيادة وبكت.

خرجت عن طوري. لم أعرف، كيف أهوّن عليها. تمتمت غير واثق، والتفتُ إلى كاليبا:

ـ يمكن، أن يعود.

استدارت نحوي بحدّة، ووجهها مبلل بالدموع وقالت:

ـ أنا لا أبكي من أجله. لقد وثقتُ، وحلمتُ! لكن بماذا وثقتَ؟ وبماذا حلمت؟

ثم صرخت فجأة، بقوة طافحة بالشكوى والألم، جعلت السهب الخالي يجيبها بصدى شاكٍ:

ـ فكرتُ، أن الشاب عامل، فكرتُ، أن الشرّ سيخرج منه. أردت له الخير، أردتُ تدفئةَ روحه بالحب. أمّا هو؟ ما الذي يمكن أن أقوله... الحصان كذلك يعمل، أمّا الإنسان ـ فهو الإنسان، الذي في داخله روح فحسب قبل كل شيء... حينها السعادة في العمل، حينها للعمل معنى... أمّا هو فلم يفهم شيئاً. هكذا كان، وهكذا ذهب. أشعر بالضِعةِ، لو أن أحداً يعرف كم ذلك مهين!..

كنت صامتاً، كئيباً وحزيناً. حزنتُ لأجل كاليبا. تألّمتُ لها. لم أفهم أنا، كيف استطاعت أن تحبُ مثل ذلك الإنسان... لكن لو

مكتبة الفكر الجديد

عرف أباكير، لو أدرك، أية سعادة حقيقية أضاع اليوم، بابتعاده عن هذه المرأة، لكان هو، وليست هي، من ملأ السهب نداءً، كما الذئب في زمهرير الشتاء.

جلست كاليبا في عربة نقل الماء ورحلت بصمت.

هادئاً أصبح سهب أنارخاي. صدح من مكان ـ ما في البعيد، مهتزاً ومتقلباً في عناقيد الشيح، في الأسفل قليلاً هديرُ قطار. ربما يكون أباكير قد سافر متعلقاً بقطار الشحن؟... لا بأس، ارحل أيها الوغد. ولتذهب حيث تشاء! لن تضيع أنارخاي، سنتدبّر أمورنا بدونك...

لم أعد أرغب في تذكّره. كان عليّ أن أتابع العمل. حاولت طويلاً حتى هدر الجرار، مفزعاً عتمة الليل. جلست في قمرة القيادة وأشعلت الضوء.

أصبحت الآن مسؤولاً عن كلّ شيء. ورغبتُ فجأة وبشدة، أن تكون الآن فتاتي العزيزة ذات الخال معي وأن تثق بأنّ دولة أنارخاي الرائعة ستكون، ستكون في سهب الشيح الوحشي هذا.

مكتبة الفكر الجديد

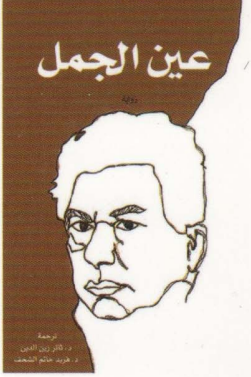

يولي ايتماتوف طبيعة الإنسان وجوهره أهميةً كبيرةً . يأخذ الشخصيات كما هي في الحياة. ينظر ليس فيما حولها فحسب، بل يحاول أن ينفذَ إلى داخلها. لقد فعل ذلك منذ أعماله المبكرة.

كما تحتل مسألة الأخلاق في أعمال ايتماتوف أحد الأماكن المركزية. يعيش الخير والشر داخل الفئة الاجتماعية الواحدة، وداخل الإنسان الواحد كما سنرى في هذه الرواية التي بين أيدينا "عين الجمل".
خلال ذلك كلّه كانت كتاباته دعوةً عميقة للناس في العالم أن يطّلعوا على روح الشعب القرغيزي وعاداته وتقاليده وقواه الوثّابة البناءة التي انطلقت - في حقبة عاشها الكاتب - تمارس التحويل العظيم للأرض وتنتقلُ من مرحلة الرعي والترحال إلى التحضّر و التمدّن، كان يدعو الناس على حد تعبيره "ليسمعوا أغاني تلك الأصقاع الجبليّة والسهوب، أغاني الحرية والحب والفرحة والانتصارات في بناء الحياة الجديدة"

مكتبة
الفكر الجديد
30-05-2017

Powerd by AZIZ HUMAID STUDIO